الباب السادس

انتشار الإسلام بين شعوب أوروبا المسيحية في عهد الأتراك

نسمع لأول مرة عن الأتراك العثمانيين في بداية القرن الثالث عشر عندما هربوا من وجه المغول في عدد يقرب من خمسين ألفا، ثم قدموا لنجدة سلطان قونية الذي أقطعهم ولاية في الشمال الغربي من آسيا الصغرى مكافأة لهم على خدماتهم ضد المغول والإغريق، وكانت هذه الولاية نواة الدولة العثمانية المقبلة التي أخذت تتسع أول الأمر باندماج الولايات الصغيرة التي كان الأتراك السلجوقيون قد تقاسموها فيما بينهم، ثم عبر الأتراك إلى أوربا وأخذوا يضمون إلى ملكهم دولة بعد أخرى، حتى توقفت انتصاراتهم المطردة أمام أبواب فيينا في سنة ١٦٨٣[١].

ولقد باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى، ولم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت، ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمَّد الثاني، بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حاميا للكنيسة الإغريقية، فحرم اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا، ومنح

---

(١) لا مجال هنا لسرد تاريخ هذه الأراضي التي استولى عليها الأتراك، والتي يمكن سردها بإيجاز فيما يلي: في سنة ١٣٥٣ عبر الأتراك العثمانيون إلى أوروبا أولا، وبعد سنوات قلائل اتخذوا أدرنة حاضرتهم الأوربية، وفي عهد بايزيد (١٣٨٩– ١٤٠٢م) امتدت ممتلكاتهم من بحر إيجة إلى نهر الطونة، مشتملة على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتساليا وترافية، ما عدا خلكيدية والمقاطعة المحيطة بالقسطنطينية مباشرة. ثم احتل مراد الثاني (١٤٣١– ١٤٥١م) خلكيدية، وسار بفتوحاته قدما نحو الأدرياتيك، وقد أصبح محمَّد الثاني (١٤٥١– ١٤٨١م)، بعد أن فتح القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب، سيد شبه الجنوبية الشرفية، ما عدا الأجزاء الساحلية التي تحتلها البندقية والجبل الأسود، ثم أضاف سليمان الثاني (١٥٢٠– ١٥٦٦م) إلى مملكة بلاد المجر وجعل بحر إيجة عثمانيا، وفي القرن السابع عشر، استولوا على إقريطش، ونزلت لهم بولندة عن بودوليا.

البطريق الجديد مرسوما يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق.

وقد تسلم جناديوس، أول بطريق بعد الفتح التركي، من يد السلطان نفسه، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية، وحصان محلى بطاقم فاخر، وكان يتميز بركوبه في خلال المدينة تحف به حاشيته[١]. ولم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعا أيضا بسلطة أهلية واسعة، فكان من عمل البطركية أن يفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض: فكان لها أن تفرض الغرامات، وتسجن المجرمين في سجن معد لها، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان. بينما صدرت التعليمات إلى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام، وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنيسة (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقا بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريق وأعضاء المجتمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء، كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلا من جانب الحكومة.

ولما كان هذا البطريق معترفا به موظفا من موظفي الحكومة السلطانية، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان إلى أعمال الحكام الظالمين، كذلك عوامل الأساقفة من الإغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة، وعهد إليهم كثيرا من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية، إلى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم كما لو كانوا عمالاً من الأتراك على الأهالي الأرثوذكس؛ وبذلك حلُّوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة التي استأصل الغزاة شأفتها. ونجد أن رؤساء الكنيسة كانوا بوجه عام أكثر نشاطا باعتبارهم من الأتراك منهم باعتبارهم

---

(١) **Phrantzes, pp.305-6.**

قساوسة من الإغريق، وطالما علموا شعبهم أن السلطان قد اكتسب قبولا إلهيا بوصفه حامي الكنيسة الأرثوذكسية، ومن ثم أذيع منشور يكفل للأرثوذكس حتى استخدام الكنائس التي لم تصادرها الحكومة لتحويلها إلى مساجد، ويمنح لهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية تبعا لعاداتهم القومية(١).

وكان من أثر ذلك أن الإغريق، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عددا في كل الولايات الأوربية التابعة للدولة، قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم. يسرعون في الموافقة على تغيير سادتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية، وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيبا من جانب الإغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية البلوبونيز وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان، فقد صيروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها، بإدخالهم نظام الإقطاع في اليونان، كما كانوا مكروهين من رعاياهم، لاختلافهم عنهم في اللغة والجنس والعقيدة(٢). ووجد هؤلاء الرعايا أن أي تغيير لحكامهم، طالما لا يمكن أن يثقلهم إلى حالة أسوأ مما هم عليها، قد يهيئ لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة. ومع أن مخلصيهم كانوا كذلك غرباء عنهم، إلا أنهم آثروا التركي الكافر على الكاثوليك الهراقطة إيثارا مطلقا(٣).

---

(١) **Finlay, vol. iii. P. 522.**

Pitzipios, seconde Partie, P. 75. M. d'Ohsson, vol. iii. P.52-4.
Arminjon, vol. i.P.16.

(٢) يرسم أحد الرحالة الذين زاروا جزيرة قبرص في سنة ١٥٠٨ صورة من ظلم البنادقة في أملاكهم الأجنبية على الوجه التالي: «كل سكان قبرص عبيد البنادقة لكونهم مضطرين إلى دفع ثلث مرادهم أو إدخالهم للدولة سواء من حاصلات أراضيهم أو من الغلال أو النبيذ أو الزيت أو الأغنام أو أي شيء آخر، إلى جانب ذلك يسخر كل منهم بالعمل للدولة يومين في الأسبوع في أي مكان يجبون تعيينه فيه، وكل من يتخلف منهم عن العمل بسبب انشغاله في بعض أعماله الخاصة، أو لعلة جسمانية، يكلف بأن يدفع غرامة من الأيام التي تغيب فيها عن العمل، ومما زاد هذه الحالة سوءا أن هناك بعض الضرائب السنوية، وغيرها من الضرائب التي فرضت عليهم، مما جعل عامة الشعب من الفقراء على جانب كبيرة من الهزال والانهيار بحيث كانوا لا يكادون يتركون وسيلة يبغون بها على الروح والجسد معا».

(The Travels of Martin Baumgarten, P.373).

راجع أيضا النصوص التي نقلها هاكيت **Hackett** في: **History of the Orthodox Church of Cyprs P.183.**

(٣) **Finlay, vol. iii.P.502.**

كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر، فقد كان من الجائز أن يوافقوا على تغيير الحكام. وقد بلغت حالة التدهور والظلم التي ميزت أسرة **Palaelogi** إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والذكر. «فإن الأرستقراطية الفاسدة، ورجال الكنيسة المستبدين الذين لا يحصيهم العد، وضغط القانون الباطل، وإرهاق الحكومة الوضيعة، وأكثر من هذا، المقاطعات والمالية والجيوش المجيشة لجمع الضرائب والخراج – كل ذلك قد جعل الشعب المنحل خلوا من الحقوق والمبادئ، لا فرصة أمامه للإصلاح، ولا أمل له في الانتعاش»(١).

وهنا نشير إلى كتابة تؤيد صحة هذا الحكم لأحد المعاصرين الذين يعدون حجة، حتى لا يظهر أن مثل هذا الحكم قد أملته روح التعصب الطائفية. فقد عرض الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية لمثل هذا الحكم ضد حكومتها بقولهم: «إن أية دولة لا تخاف القانون تشبه فرسا من غير زمام. لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب، فلم تعد في محاكمهم عدالة، ولا في قلوبهم شجاعة. وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم، وأصبح الجنود الإغريق لا يفخرون إلا بفخامة الملبس، والمواطنون لا يتحرجون من الظهور بمظهر الغش والخيانة، والجنود لا يخجلون من الفرار، وأخيرا صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن مُحَمَّد الذي ينشد أتباعه المحاربون اللذة في القتال، والذي لا يخدع قضاته ضمائرهم(٢). هذه العبارة الأخيرة التي تنطوي على المديح والثناء(٣)، فلو تقع موقع الدهش حين يسمعها جيل من الأجيال طالما استنجد به ليحتج على جور الأتراك، ولكن هذا ثابت في وضوح وتواتر بشهادة المؤرخين المعاصرين، فالمؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط

---

(١) **Urquhart, quoted by Clark: Races of European Turkey, P.82.**

(٢) **Karamsin, vol, p.437.**

(٣) ويكتب مارتن كروسيوس **Martin Crusius** بهذه الروح نفسها إذ يقول: «ومن الغريب أننا لم نسمع مطلقا أن شيئًا من الجرائم أو المظالم قد وقع بين البرابرة (الأتراك) وبين البقية الباقية في هذه المدينة الكبرى، فالعدالة ممنوحة لكل فرد، لذلك وصف السلطان القسطنطينية بأنها ملجأ العالم كله: ذلك لأن جميع التاعسين يختبئون هناك في أمان، ولأن العدالة توزع على الناس جميعا؛ على أقلهم شأنا وأعظمهم نفوذا على المسيحيين والكفار سواء بسواء.
Tureogracia, P. 487). (Basilea, 1584).

القسطنطينية، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم نفسه رحب الصدر، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية كاملة، وقد اشتهر مراد الثاني بعنايته في تحقيق العدالة وبإصلاحه للمفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريقيين، وعاقب في غير هوادة أي موظف من موظفيه استبد بأي فرد من رعاياه(١).

لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل، طائفة من الحكام الصالحين، واستطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها، ووجدنا تنظيما رائعا في الشئون المدنية والقضائية، وهو إن لم يجعل المساواة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أنه جعل الإغريق أحسن حالا بكثير مما كانوا عليه من قبل. فقد كان ما كلفوا به من مشقة العمل الإجباري أهون عليهم من ذي قبل، وكانوا في القليل النادر يدفعون غرامات غير عادية، وكانت الضرائب التي يدفعونها عبئا خفيفا، إذا ما قورنت بالالتزمات الإقطاعية، التي لا تنتهي، والتي كان الفرنجة يفرضونها عليهم، والإرهاق المستمر الذي كانوا يتكبدونه من البيزنطيين، ولا شك أن الإيالات التركية كانت أحسن حكما وأكثر رخاء من معظم جهات أوربا المسيحية، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحكام المسيحيين(٢).

أضف إلى ذلك عاملا كبيرا كان من أهم العوامل في زيادة نشاط المملكة التجارية، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائما على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين

---

(١) phrantzes, P.92.

(٢) «وإذا عاش النصارى أو اليهود (في الشرق) في أماكن فيها قضاة أو سوباشاهات (وهي وظيفة إدارية تقابل اليوم وظيفة المدير أو المحافظ في مصر) بحيث لا يستطيع عامة الأتراك أن يفعلوا بهم ما يشاءون، فإنهم (أي اليهود والنصارى) كانوا يؤثرون أن يعيشوا تحت سيطرة النصارى، ذلك أنهم كانوا لا يتعرضون لأذى ما داموا يدفعون الجزية، أما في الممالك النصرانية فلا حد لما كان على الرعايا أن يؤدوه للدولة طوال العام (Tage- Buch, P.413).

رعاياهم؛ وأن كثيرا من المدن الكبرى قد ازدهر ازدهارا كبيرا عندما خلصها الفتح التركي مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية التي سلمت لأورخان سنة ١٣٣٠ بشروط ملائمة جدا بعد حصار طويل[١]. وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة في إنشاء الطرق والكباري مما سهل التجارة في جميع أنحاء الدولة؛ وقد اضطرت الدولة الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق، وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد الأباطرة البيزنطيين. ذلك أنهم قد أصبحوا في تلك الحالة يبحرون في ظل الراية العثمانية، وقد اتخذوا زي الأتراك وعاداتهم، ومن ثم ظفروا من أمم غربي أوروبا بالاحترام والتقدير الذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائما حتى ذلك الحين أن يمنحوهما أفراد الكنيسة الإغريقية[٢].

ولسنا نستثني من هذا السلوك الطيب، وذلك التسامح الكريم، إلا أمرا واحدا معروفا، ذلك هو ضريبة الأبناء المسيحيين الذين كانوا يؤخذون من آبائهم في سن مبكرة كرها وينتظمون في سلك الإنكشارية المشهورين، وقد استحال هذا الجيش، بعد أن أنشأه أروخان سنة ١٣٣٠، في خلال بضعة قرون، عمادا لقوة السلاطين الأتراك الغاشمة، وظل يتغذى بهذه الضريبة المنتظمة، وكانت تحدث مرة كل أربع سنوات[٣]، عندما كان قواد السلطان يزورون المقاطعات التي فرضت الضريبة عليها، فيختارون طائفة من بين الأبناء الذين يبلغ سن الولد منهم السابعة تقريبا. وقد حاول فقهاء المسلمين تبرير هذه الضريبة التي تتنافى مع الإنسانية بأن جعلوا هؤلاء الأولاد يمثلون الخمس الذي جعله القرآن من نصيب الحاكم في الغنائم[٤]، وأفتوا بأن تجنب الإكراه على اعتناق الإسلام[٥] كان ملحوظا

---

(١) **Hertzberg, PP. 467, 646.650.**

(٢) **Finlay, vol, v. pp. 156-7.**

(٣) على أن هذه الفترة لم تكن ثابتة؛ ففي أول الأمر كانت الجباية تحدث كل سبع سنوات أو خمس، ولكنها حدثت في عصور متأخرة على فترات أكثر من هذه، تبعا لحاجة الحكومة (**Menzel, P.52**). ويقرر متروفانس كريتوبولوس، فيما كتبه سنة ٦٢٥، أن الحياة كانوا يفدون إلى المدن إذا وافت السنة السابعة، وكان على كل مدينة تتطوع بثلاثة أولاد أو أربعة، أو بولدين على الأقل (**P.205**)

(٤) القرآن سورة ٨ آية ٤٢.

(٥) نفس المرجع سورة ١٠ آية ٩٩، ١٠٠.

من غير شك بالنسبة إليهم كذلك، على أن حداثة سنهم التي كانوا يوضعون فيها تحت إرشاد معلمين من المسلمين لا بد أنها لم تكن بحيث تجعل(1) لهذه النظرية أية قيمة من الوجهة العملية، ولقد طالما عبرت أوروبا المسيحية عن استيائها من هذه الضريبة الوحشية، ورسم الرحالة الذين تنقلوا في الولايات التركية صورا مؤلمة للمنازل المهجورة والآباء الذين ذرفوا الدفع على الأطفال الذين انتزعوا منهم انتزاعا، غير أن الجيش في أول نشأته كان قد كثر عدده بسرعة فائقة بتطوع كثيرين من بين المسيحيين أنفسهم(2).

وربما كانت الظروف والأحوال التي فرضت فيها هذه الضريبة أولا تذهب بعيدا في تفسير الجمود الذي أبداه الإغريق في أنفسهم فيما يظهر. فقد تعرضت البلاد كلها للخراب من جراء الحروب، وكثيرا ما استهدفت الأسر لخطر الهلاك جوعا، ومن ثم كان الأبناء الذين يتبنون يتامى في كثير من الأحيان، ولولا تبنيهم لتعرضوا للهلاك، أضف إلى ذلك أن عادة بيع المسيحيين إرقاء كانت في ذلك الحين قد انتشرت انتشارا واسع النطاق، ربما أدى إلى جعل هذه الضريبة أقل إثارة للدهش مما كان متوقعا، ثم إن هذه العادة قد ثبت أنها لم تكن إلا استمرار لحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الأباطرة البيزنطيين(3).

وقد قيل أيضًا أنه لم يكن ثمة ما يدعو القواد الذين كانوا يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه إلا في القليل النادر، وإنما كان هؤلاء الآباء مشوقين في الغالب إلى إدخال أبنائهم في خدمة تهيئ لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة

---

(1) ومع ذلك فإن الشبان المسيحيين لم يرغموا على تغيير عقيدتهم، وكانت مبادئ الحكومة تتعارض مع ذلك طبقا لأحكام القرآن، فإذا كان هؤلاء الموظفون قد استخدموا أحيانا شيئًا من الإكراه الديني بدافع تعصبيهم، فقد كان ذلك تساهلا من جانب قيادتهم، على أن هذا الإكراه لم يكن مسموحا به مطلقا من الرؤساء.**(M. d'Ohosson, tome iii. Pp. 397-8).**

(2) **Hertzberg, P.472.**

(3) «على أنه من المحزن جدا ما حدث يوما ما من أن الأباطرة المسيحيين كانوا يستعرضون من كل مدينة عددا معينا من الأطفال الذين يبدو أن قواهم الطبيعية ترى هؤلاء الباقيين، الذي تحملوا مشقة إحضارهم إلى الساحة للقيام بواجبات الخدمة العامة: المدنية والحربية: كذلك عندما احتل الأتراك الإمبراطورية اليونانية، كان لهم نفس الحق أن ينتزعوا من أرباب الأسر أطفالا وهبتهم الطبيعية قوة بالغة.

(David Chytraeus, PP. 12-14).

ناعمة مريحة، لا تعنيهم الظروف والملابسات، طالما كان هؤلاء الأسرى الصغار ينشئون ويثقفون كما لو كانوا أولاد السلطان نفسه[١].

ثم إن هذا النظام قد يبدو أخف وحشية لو أن الآباء كانوا حقا يفتدون أولادهم غالبا بدفع الأموال[٢]. وفي سنة ١٦٢٥ كتب متروفانس كريتوبولوس **Metrophanes Kritopoulos** وكان بطريقا للقسطنطينية ثم للإسكندرية، فذكر شتى الحيل التي كان يلجأ إليها المسيحيون تخلصا من عبء هذه الضريبة. من ذلك أنهم كانوا يشترون أولاد المسلمين ويقدمونهم على أنهم مسيحيون، وأنهم كانوا يرشون الجباة ليأخذوا بدلا من أولادهم أولادا من المسيحيين الذين ولدوا من عنصر منحط، أو نشئوا تنشئة فاسدة، أو ممن «يستحقون الشنق»[٣].

وتحدث توماس سمث **Thomas Smith** في جملة أخرى عن إمكانية افتداء الأولاد بالمال، وقد بلغ من التأثر مبلغا عظيما، «وحرص بعض آبائهم بدافع من الشفقة الطبيعية والشعور الديني الصادق على ألا يسلبوا أبناءهم الذي قد تضطرهم هذه المحنة إلى الارتداد عن نصرانيتهم، فكانوا يدفعون للأتراك خمسين دولارا أو مائة، مبلغا يتفاوت قلة وكثرة حسب قدرتهم على الدفع، ومدى تأثيرهم في جشع الأتراك»[٤]. وقد أعفي من هذه الضريبة القاسية أهالي مدن خاصة من المسيحيين كالقسطنطينية وبعض البلاد والجزائر التي كانت قد اتفقت على هذا الشرط وقت تسليمها للأتراك، أو كانت قد

---

(١) **Creasy, P. 99. M. d'Ohsson, tome iii. P.397, Manzel, P.53.**

وقد قال توماس سمث وهو يتحدث عن أمثال هؤلاء الآباء: وآخرون قد لحقهم الدين وعاره، مسيحيون اسما فحسب تخلوا عنهم، في حرية وإقبال عظيم، لا لكي يتخلصوا من متاعبهم وأعبائهم فحسب، بل أملا في أن يحصلوا، بعد أن يكبروا، على شيء من السلطان في الحكومة»، **An account of the Greek Church P.12 (London1980).** وفي عهد مراد الأول، استخدمت الجيوش المسيحية في جمع ضريبة الأطفال المسيحين هذه **(Finlay, vol, V.P.45)**.

(٢) «وعلى أنه كان من الممكن حقا أن يخلص الآباء هؤلاء الأطفال من الحياة بافتدائهم بالمال، **(David CFhytraeuse P.13)** يذكر دي لاجيتير **De la Guilletière** هذه الضريبة في سنة ١٦٦٩ على أنها من خصائص الأثنيين.
(An account of a late Voyage to Athens, P. 272. London, 1676).

(٣) **Confessio, P.205.**

(٤) **An account of the Greek church, P. 12 (London, 1680).**

اشترت هذا الامتياز[١].

وإن هذه الظروف المخففة في بداية حكمهم، وحالة الرخاء التي يستسلم الناس في ظلمها لأية عادة مقررة – ولو أنها لا تصلح بحال أن تكون عذرا لهذا الوضع الذي يتنافى مع الإنسانية –لتعيننا على فهم ما يسميه أحد الرحالة في القرن السابع عشر «عدم الاكتراث الذي لا يمكن تعليله»[٢]. والذي يظهر أن الإغريق كانوا قد وقعوا فيه، حين طلبوا حكومة جديدة (حكومة الأتراك) عملت على تحسين حالتهم تحسينا ملموسا.

زد على ذلك أن رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين كان عليهم أن يدفعوا ضريبة الرأس في مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، وكانت الفئات المقررة في القانون العثماني تتراوح بين ٢.٥، ٥، ١٠ قروش على كل ذكر بالغ، كل بالنسبة إلى دخله[٣]، على حين أعفي النساء ورجال الكنيسة[٤]. وكانت الفئات في القرن التاسع عشر تتراوح بين ١٥، ٣٠، ٦٠ قرشا، كل بحسب دخله[٥]. وكثيرا ما تحدث الكتاب المسيحيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن هذه الضريبة بتقدير دوكة واحدة عن كل رأس[٦]. ولكنهم أخبروا كذلك، على اختلاف فيما بينهم أنها تتراوح بين ٣، ٥، ٥ ١/٧

---

(١) Menzel, P. 52 Thomas Smith: De Moribus ac Institutis Turcarum P.81 (Oxoni, 1672).

(٢) Hill, P.174.

(٣) Joseph von Hammer (2). Vol. ii.p0151

ويقرر هنس شلتبرجر Hans Schilberger الذي أسره الأتراك في سنة ١٣٩٦م ورجع إلى وطنه ميونيخ أن قضى في الأسر اثنين وثلاثين عاما، أن الضريبة التي لم يكن بد من أن يدفعها المسيحيون لم تزد على جزئين من مائة من المارك في الشهر.

(Reisebuch, P.92).

(٤) كانوا يعفون خدام الدين المسيحي، كما أمر بذلك الله، كأنهم كانوا يفعلون ذلك احتراما للمناصب المقدسة التي يشغلونها كما أعفيت النساء كذلك ممن دفع هذه الضريبة.

(De Graecae Holiereno statu Epistola, authore Thoma smitho. P.12).
(Trajecti ad Rhenum, 1698).

(٥) Silberngl. P.60.

(٦) Martin Crusius, P. 487; Sansovino, P.67.

Georgieviz, PP. 98-9, Scheffler, 56. Hertzberg, P. 648. De la Jonquiere, P.267.

من الريالات أو الدولارات[1]. ولعل التقلبات التي طرأت في القرن السابع عشر على سعر النقد في العملة التركية هي التي تفسر لنا تلك التغييرات الأخيرة، ولكي نقدر على وجه التحقيق، إلى أي حد كانت الضريبة عبئا على هؤلاء الذين يؤدونها فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستفيض حول تتبع قيمة النقد في هذه الفترة، وعمل مقارنة مع سائر أبواب المصروفات[2]. ولكنها لا تكاد تكون في ذاتها عذرا وجيها لتغيير العقيدة، كما أشار إلى ذلك تورنيفوروت **Tournefort** حيث كتب سنة ١٧٠٠م عن إسلام الكانديوث **Candiots** فقال: «يجب أن نعترف بأن هؤلاء التاعسين يبيعون أرواحهم بما يساوي بنسا، وأن كل ما حصلوا عليه من تبديل دينهم، هو تغيير زيهم وتمتعهم بإعفائهم من ضريبة الرأس التي لا تتجاوز خمسة ريالات في العام»[3]. كذلك قرر شفلر **Scheffler** الذي كان مولعا بتلوين حالة المسيحيين في ظل الحكم التركي بأقتم ما استطاع من ألوان، إن دوكة واحدة لكل رأس شيء تافه، ورأى أن يوجه عنايته قبل كل شيء إلى الضرائب غير العادية، وإتاوات الحرب وغيرها مما كانوا يطالبون بأدائها[4].

ويقرر كتاب نشر في لندن سنة ١٥٩٥ بعنوان **The Estate of Christians living under the subjection of the Turke** أن ضريبة الرأس عند الأطفال الذكور كانت ثمانية شلنات (P.2) ويقول ميشيل باودن **Michel Bauden** إن مقدارها (one Sequin) لكل رأس من الذكور، (Histoire du serrail, P.7 Paris, 1662).

(١) **Georgierenes, P. p.Tournefort, vol. I. P: 91; Tavernier (3). P.11.**

(٢) وفي كتاب نشره جوزيف جيور جيرنييس رئيس أساقفة سيسام (جزيرة في بحر إيجة، يذكرنا العرب بصيغة ماهو أو سام أو شامس **Encyc of Islam**)، في أثناء زيارة إلى لندن، يمدنا بوصف عن دخل أبرشيته، الذي يظهر أن تفصيلاته لم تعد مجحفة، كما أنها كانت مدونة هنا لفائدة قراءة الإنجليز: وإذا ما قورنت بالمبالغ المذكورة هنا فينبغي أن نذكر أنه يتحدث عن ضريبة الرأس باعتبارها ثلاثة ريالات أو دولارات (PP.8-9) «عندما يتولى (أي رئيس الأساقفة) لأول مرة يقدم له الآباء أو قسيس أبرشية الكنيسة عن مسكنه خمسة عشر دولارا أو عشرين، أما هؤلاء التابعون الكنائس الأخرى، فيمنحون بحسب قدرتهم على الدفع، في السنة الأولى من توليه يؤدي كل خوري كنيسة له أربعة دولارات، وفي السنة التالية دولارين ويؤدي كل علماني إليه ثمانية وأربعين أسيرا (asper) (في المعاهدة التجارية التي أبرمت مع إنجلترا سنة ١٦٧٥ كانت قيمة الدولار ثابتة أسبرا (Finlay, v.28) «وفي السنين التالية بلغت أربعة وعشرين، ويؤدي أهل سيسام دولارا واحدا عن كل ترخيص؛ وكل الغرباء يدفعون دولارين، ولكن كل من يأتي بعد الزيجة الأولى ليطلب ترخيصا بزيجة ثانية أو ثالثة بدفع ثلاثة دولارات أو أربعة». (PP. 33-4).

(٣) **Tournefort, vol. i. p.91.**

(٤) **Scheffler, 56.**

وكانت ضريبة الأطيان مفروضة على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء. ذلك أن التفرقة القديمة بين الأراضي التي يدفع عنها الملك المسلم العشر، والأراضي التي يدفع عنها المالك غير المسلم الخراج لم تكن معروفة لدى العثمانيين[1]. وأيا كانت هذه المتاعب التي لم يكن بد من أن يتجشمها المسيحيون، فقد نشأت محن ظلم الأفراد الذين استغلوا منصبهم الرسمي لابتزاز الأموال من هؤلاء الذين وقعوا تحت سلطتهم، ولم يكن مثل هذه المظالم يتنافى مع الشريعة المحمدية فحسب، بل كان نادر الوقوع قبل أن يتطرق الضعف إلى الحكومة المركزية ويعاني فوضى السلطات المحلية وتعسفها دون أن توقع عليها عقابا[2].

وهناك فرق واضح كل الوضوح بين ما لدينا من الأخبار الخاصة بحالة المسيحيين في خلال القرنين الأولين من الحكم التركي في أوروبا والأحبار التي تتعلق بحالتهم في وقت متأخر، حيث كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل، ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين في خلال القرنين الأولين من الحكم التركي في أوروبا والأخبار التي تتعلق بحالتهم في وقت متأخر، حين كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل، ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام كان قليلا جدا في هذه الفترة نفسها التي كان المسيحيون فيها أشد تعصبا.

أما فيما يتعلق بهذه الدوكات التي تؤدونها فإنكم أنتم أيضا تنخدعون بها انخداعا فظيعا، حقا إن الإمبراطور التركي لا يأخذ في المادة جزية على الرأس إلا دوكة واحدة، ولكن إن ضرائب الجمارك والضرائب غير العادية، ألا يأخذ وكلاء السلطان وعماله شيئًا أبدا، ألستم ملومين في أوقات الحرب بدفع ضرائب غير عادية؟ أما الضرائب غير العادية فإنها تزيد وتنقص تبعا لسوء حال العصور، والواجب أن يدفع رعايا السلطان هذه الضرائب كما تدفعها نحن..

(١) Hammer (2), vol. i.p346.

(٢) وقد نشأت المصاعب التي كان يعانيها رعايا السلطان من المسيحيين، في كل الأزمان من تلك الحقيقة وهي أن السلطة المركزية في القسطنطينية لم يكن لها إلا سلطان فعلي ضئيل على كل أرجاء الدولة التركية، وإن الظلم اليسير الذي أحدثه موظفو القرى، والذي قد جعلته الأحقاد الشخصية شديدة الوطأة، هو الذي أثار أعمال القسوة هذه التي أذعن لها المسيحيون في تركيا سواء في العهود السابقة أو في الوقت الحاضر حيث تظهر هذه الأعمال أعنف وأشد، وفي الأيام التي تصل أمة من الأمم إلى عظمتها، قد تكون العدالة بل الشرف بإزاء الشعب المحكوم أمرا محتملا، ولكن النادر أن توجد هذه الصفات في أمة تأخذ طريقها نحو التأخر والانحلال».

(Rev. W. Denton: Servia and the servian, P. 15 London, 1982 Gerlach PP 49.52.

ولما كانت حالة المسيحيين في القرن الثامن عشر أسوأ منها في أي عهد آخر، كان من الصعب أن نجد أية إشارة تدل على تحول المسيحيين إلى الإسلام، وظهر الأتراك أنفسهم بمظهر الذين لا يكترثون مطلقا لتقدم دينهم، كما أصيبوا إلى حد كبير بالشك والإلحاد (١). ودليل آخر يثبت أن ما تحملوه من مشاق كان راجعا إلى فساد الحكومة أكثر منه إلى الاضطهاد الديني، ذلك أن المسلمين والمسيحيين قد لاقوا المتاعب على حد سواء(٢). ومع ذلك فقد كان المسيحيون بطبيعة الحال أكثر تعرضا للعسف وسوء المعاملة لما اعترضهم من صعاب في سبيل الحصول على ما يصلح حالهم بالدفاع عن قضيتهم، ومن ثم لا يبعد أن يكون تغيير الدين وسيلة لجأ إليها طائفة من أفقر طبقاتهم تحروا من متاعبهم.

ولكننا إذا استثنينا ضريبة الأبناء التي يلوح أن الإغريق المغلوبين على أمرهم قد أذعنوا لها ولم يظهروا مقاومة تذكر، والتي يرجع السبب في إلغائها، لا إلى ثورة قامت، أو

---

(١) Businello, PP.43-4.

(٢) جرت عادة حكومة السلطان المركزية أن تعامل رعاياها من المسلمين بمثل ما عاملت به المسيحيين المغلوبين على أمرهم من القسوة والجور، وقد كانت متاعب الإغريق نتيجة لما صدر من الطبقة الحاكمة والظلم، وما سيطر على الإدارة العثمانية من فساد، أكثر من أن تكون نتيجة لمباشرة السلطان لنفوذه، كان للإغريقي في شئونه الخاصة، فرصة للحصول على العدالة من أسقفه وشيوخ ناحيته، أحسن مما كان يحصل عليه التركي من القاضي .(FinaLy, vol, vi, PP.4-5) ومن الخطأ أن تزعم أن المسيحيين وحدهم هم الطائفة المطلوبة البائسة من الأهالي، فقد كان فساد الأداء الحكومية التركية شاملا، يرزح تحت ثقله جميع الناس على سواء، وربما كان بؤس المسلمين في بعض أنحاء المملكة أسوأ حالا في الواقع من بؤس المسيحيين وإنما كانت حالة المسيحيين هي التي أثارت أكثر من غيرها شفقة الرحالة

(William Forsyth: The Slavonic Provinces south of the Danube pp. 157-8 London, 1876)

ويقع كل هذا التعسف والبؤس (يعني في شمال آسيا الصغرى) على الأهالي من المسلمين والمسيحيين على سواء.

(James Bryce: Transcaucasia and Ararat, P.381).

«خيل إلى أوروبا أن المسيحيين وحدهم هم الذين يذعنون في تركيا للاستبداد والحساب والهوان، الذي نشأ عن التعسف؛ لم يكن هذا مطلقا! فما من قوة أجنبية كانت تعني بأمر المسلمين؛ ومن ثم ربما كان العين الواقع عليهم أشد، وتعرضهم لحمل نير الظلم أكثر مما تعرض له هؤلاء الذين لا يؤمنون بالنبي» .(De la Jonqière, P.507)

وإذا حكمنا مما لاحظناه من قبل، وجدنا أن أحط طبقات المسيحيين في آسيا الصغرى لم يكونوا أسوأ حالا من أمثالهم في تركيا. وإذا كان مسيحيو تركيا يتمتعون ببعض مزايا من تأثير تفوق عددهم على عدد الاتراك، فإن مسيحيي آسيا يراحون حين يرون أن الأتراك يتعرضون من جانب أصحاب النفوذ لمثل حالة العسف التي يتعرضون لها هم أنفسهم؛ وحسبهم أن يتعاملوا مع جنس من المسلمين أرق حاشية، وأشد تدينا، وأحسن انتحالا لمذهب من أمثالهم في أوروبا.

(W. M. Leake: Journal of a Tour in Asia, P.7. London. 1824)

وانظر كذلك: .Lauence Oliphant: The Land of Gilead pp. 320-3, 446 (London, 1880)

انقلاب وقف في سبيل استمرارها، ولكن إلى زيادة السكان من الأتراك وعدد المرتدين الذين كانوا يوالون الدخول في خدمة السلطان[١] فإن المعاملة التي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين – على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين – لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر أوربا. وإن أصحاب كلفن **Calvin** في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد **Unitarians** من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة[٢].

ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي[٣]. وحدث أن هرب اليهود الإسبان المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجئوا إلا في تركيا، في نهاية القرن الخامس عشر[٤]. كذلك نرى القوزاق **Cossaks** الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء **Old Belivers** الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية[٥]. وربما كان يحق لمقاريوس بطريق أنطاكية في القرن السابع عشر أن يهنئ نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة التي أوقعها البولنديون من الكاثوليك

---

(١) وفي القرن السادس عشر أخذت ضريبة الأطفال تتلاشى؛ وآخر مثال مدون لفرض هذه الضريبة كان في سنة ١٦٧٦.

(٢) **de la Jonquière, P. 333. Scheffler, 45-6 Gastowtt, P.51.**

(٣) «لأني أسمع مع فرط الدهش، أن الأمر لم يقتصر على ما يروج بين العامة من إشاعات مؤداها أن الحياة في ظل الحكم التركي شيء مقبول؛ ذلك أنه يظن أن الإنسان متى دفع دركة واحدة وهي جزية لرأس لم يعرض له بعد ذلك بسوء، وأن الأتراك بالإجمال يتركون الناس أحرارا في دينهم، وأن النصارى سترد إليهم كنائسهم، وما شاكل ذلك، بل هنالك أيضا آخرون، (يعني من المسيحيين) ممن يجب أن يدركوا الأمور على وجه صحيح، يفرحون بما يقال لهم (عن محاسن الأتراك) ويهللون الشقاء الذي هم فيه! قال لهؤلاء النصارى ليسوا هالكين فحسب بل هم عصاة، متهورون، كفار،لم ينبتوا إلا من تربة الإلحاد التي تجنح إلى الثورة، وإلى استئصال شأنه المسيحية **(Scheffler)**.

(٤) **Hertzberg, P.650.**

(٥) **De la Jonquiè, P.34.** وقد عمل ريتشارد ستيبر **R. Staper** وهو تاجر إنجليزي كان في تركيا في عصر مبكر (سنة ١٥٧٨)، مقارنة مماثلة بقوله: وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب، بسيرهم في أعمال الظلام.. سمحوا للمسيحيين جميعا، للإغريق منهم واللاتين، أن يعيدوا محافظين على دينهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة، في القسطنطينية وفي أماكن أخرى كثيرة جدا، على حين أستطيع أن أؤكد بحق دليل اثني عشر عامة قضيتها في إسبانيا، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إننا في خطر على حياتنا وسلما.

(M. Epstein: The Early History of the levant Company, P.57. London, 1908)

على روسيي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، قال مقاريوس: «إننا جميعا **Catholic Poles** قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك الأشقياء الزنادقة أعداء الدين.

وربما كان عدد القتلى سبعين ألفا أو ثمانين ألفا. فيا أيها الخونة! يا مردة الرجس! يا أيتها القلوب المتحجرة! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والثيبة والأطفال حتى تقتلوهم؟...

ولماذا أسميهم البولنديين الملعونين؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطا وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين، وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس. أدام الله بقاء دولة الترك خالدة إلى الأبد.. فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودا أو سامرة: أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعثور من إخوان المسيح بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر؛ بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفون أسرار دينهم(١)، حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشووق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح الذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة مسيحية(٢).

---

(١) **Macarius, vol. i. 183. 165 The memorial Presented by polish refugees from Russia of the Sublime porte, in 1853 (Gasztowtt, p.217).**

(٢) وضع بعضهم نصب عينيه نوعا من الحرية ينطوي على الحماقة؛ فلما فقدوا الأمل في الحصول على هذه الحرية في ظل حكومة مسيحية، آثروا أن يعيشوا في ظل الأتراك، كان هؤلاء كانوا أكثر شفقة في منح هذه الحرية من الحكام المسيحيين".

(Joannis Ludovici de conditione Vitae Christianorum sub Turca, pp 220. 225) Basileae, 1538).

وينادي بعض الناس بأن الإيمان حر في ظل الحكم التركي"

(Othonis Brunfelsii ad primcipes et christanos omnes Oratio, P.133) (Basileae 1538).

وحول سنة ١٥٢٧ كتب أوبرنوس فوليتا **Ubertus Foleta** أحد أشراف جنوة، يقول: "وطالما تساءلت: كيف يحدث أن عدد كبيرا جدا من رجالنا يأوي إليهم باستمرار، ويتنكر للديانة المسيحية، وينضوي تحت لواء الشريعة الإسلامية.

وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة في أملاك سلطان تركيا، ومع أن ما اتصف به العابثون من عمال الأتراك في أيام انحلال الدولة من ظلم ونقص في روح العدل والإنصاف ربما دفع بعض المسيحيين إلى أن يحاولوا تحسين حالتهم بتغيير عقيدتهم، فإن أمثال هذه الحالات كانت نادرة في القرنين الأولين من العهد التركي في أوروبا، تلك الفترة التي ينسب إليها معظم حالات التحول إلى الإسلام، وكان يكون من الغريب حقا، لو أن الغيرة التي دفعت العثمانيين في ذلك الحين إلى هداية الناس واستمالتهم إلى الإسلام لم تحملهم قط على مجاورة حدود التسامح الذي رسمته قوانينهم الخاصة بهم، مع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر على مجاورة حدود التسامح الذي رسمته قوانينهم الخاصة بهم، ومع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر بينهم اثنين وعشرين عاما: إن الأتراك لم يرغموا أحد على ترك دينه»[1].

وذكر آخرون شواهد أخرى مماثلة، فقد زار أحد سادة الإنجليز تركيا في الشطر الأول من القرن السابع عشر وهو يحدثنا أن «من النادر أن تجد أي إكراه للنفوس وبالأحرى لا إكراه بالقتل، إذ لم تكن هناك فرصة تسمح بارتكاب أية جناية من هذا النوع[2]». وبعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا (أي سنة ١٦٦٣) كتب مؤلف[3] كتاب **Türcken Schrifft** يقول: «وهو في أثناء ذلك (يعني التركي) يجذب (أي يحول الناس إلى الإسلام) بالحيلة أكثر مما يجذب بالعنف، وينتزع المسيح من قلوب الناس بالمكر والخداع. ذلك أن التركي في الحقيقة، في وقتنا الحاضر، لا يرغم بلدًا من البلاد على أن يكفر بالعنف والإكراه، ولكنه يستخدم وسائل أخرى يستأصل بها شأفة المسيحية من خفة ولطف. فما الذي جرى للمسيحيين إذن؟ إنهم لم يطردوا من البلاد، ولم يجبروا على اعتقاد دين الأتراك: حينئذ كان لا بد أن يصبحوا من تلقاء أنفسهم أتراكا».

(De Causis magnitudinis Tucarum Imperii, col, 1209) (Thesaurus Antiquitatum et Historiam Italie,m cura Jonnis Gergii Graevii, tom, I Lugduni Batavorum, 1725).

(١) **Turchicae Spurciae Suggillatio, fol, xvii.(a).**

(٢) **Blount, vol. i. p, 548.**

(٣) **Scheffler, § § 51, 53.**

وقد رأى الأتراك أن أعظم خير يستطيعون تقديمه لأي فرد هو أن يهدوه إلى دين الإسلام[١]. وفي سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للإغراء إلا فعلوها: يحدثنا رحالة هولندي، عاش في القرن السادس عشر أنه بينما كان يظهر إعجابه بمسجد أياصوفيا الكبير، حاول بعض الأتراك أن يؤثروا في عواطفه الدينية من طريق إحساسه بالجمال، فقالوا له: «إنك لو أصبحت مسلمًا لاستطعت أن تأتي هنا كل يوم من أيام حياتك». وبعد ذلك بقرن تقريبًا حدث لرحالة إنجليزي[٢] ما يشبه تلك الحادثة إذ قال: «وقد يسألون مسيحيًا بدافع من فيض حماستهم. في أدب جم، كما سألوني أنا نفسي عند مدخل مسجد أياصوفيا: لماذا لا تصبح مسلمًا فتكون كأحدنا؟» ومما يدل على الحب الروحي المتوقد الذي جعل هؤلاء القوم في مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين، تلك الأفراح الشعبية التي يحيون فيها من دخلوا طوعًا من المسلمين الجدد في الإسلام. فكان المسلم الجديد يمتطي حصانًا ويطاف به في طرقات المدينة، وهم في نشوة النصر. فإذا توسموا خلوص النية في تغيير دينه، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته في حظيرة الإسلام أو كان شخصًا ذا مكانة طيبة استقبلوه بتكريم عظيم، وأمدوه بما يعينه[٣].

ولا شك أنه كان هناك دليل قوي يؤيد قول من قال: «إن في نفوس الأتراك غيرة لا يكاد يصدقها العقل حين يبتهلون إلى الله أن يحول الناس إلى الإسلام، أو بعبارة أصح، أن يحول المسيحيين إلى ديانتهم المارقة: إنهم كل يوم يبتهلون إلى الله في مساجدهم مخلصين أن يؤمن المسيحيون بالقرآن، وأن يهتدوا على أيديهم، ولم يدعوا للتأثير وسيلة من وسائل الترهيب والترغيب، والعقاب والجزاء إلا فعلوها»[٤].

---

(١) Dousa, p. 38, Busbecq, p. 190.

(٢) Thomas Smith, p. 32.

(٣) Thomas Smith, p. 42. Blount, vol. i. p. 548. Georgieviz, p. 20.
Schiltberger, p, 83-4. Baudier, pp. 149, 313.

(٤) Alexander Ross, p. ix. Baudier p. 317, cf. also Rycaut, vol. i. p. 276.

«ويعتقد المرء أن تحويل الإنسان إلى معلم فضل كبير، وليس ثمة شخص لديه من الغنى ما يمكنه من امتلاك عبد إلا ويريد أن يكون له عبد فتي، قادر على أن يتحمل كل ألوان المتاعب دون ألم، هذا الشخص الذي يستطيع أن يدعي

وإن حالات المجتمع المسيحي نفسه قد جعلت هذه الجهود التي تنطوي على الغيرة والحماسة الدينية في اكتساب مسلمين جدد أشد أثرًا وأعظم قيمة. ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية في مقدمة هذه الحالات جميعًا. وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية في الشئون الزمنية، نشأ استبداد في الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزح تحت عبء القرار الحاسم الذي حرّم كل مناقشة في شئون الأخلاق والدين. والشيء الوحيد الذي أقض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التي قامت حربًا عوانًا على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما في المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة. وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعي المظاهر الخارجية مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة. ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسًا في عبادة العذراء والقديسين والصور والمخالفات الأثرية؛ وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس **Double Procession of Holy Spirit** وأخرى تافهة كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المقدس، تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية. وقد انتهت إلينا أخبار[1] عن طوائف كبيرة من الناس تحولوا إلى الإسلام ولم يكونوا من بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم، وأخبار عن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقًا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى الدخول في الإسلام.

وبينما كانت أدرنة لا تزال العاصمة التركية (أي قبل سنة ١٤٥٣) كان البلاط قد

أنه حوله إلى الإسلام حتى يستحق بذلك الشرف لكونه قد زاد في عدد المؤمنين». ويرى توماس سمث كيف كان الشيخ الذي أراه قبر أورخان في بروسه «يشخص ببصره إلى السماء، في حنان دافق، ويبتهل إلى الله أن يتعطف، فيحولها في زمنه أخيرًا إلى الديانة الإسلامية. وهذا من غير شك أعظم برهان على حبه إيانا الذي يتدفق من تلك الرغبة الزائفة التي تنطوي على جهل مطبق».

(Epistolae duae, quarum altera De Moribus ac Institutis Turcarum agit, p. 20.) (Oxonii, 1672.)

(1) وصلت إلينا هذه الأخبار من كتاب لم يعرف اسم مؤلفه الذي كان أسيرًا في تركيا من سنة ١٤٣٦ إلى سنة ١٤٥٨.

Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xvii. (a).

اكتظ بالذين دخلوا في الإسلام. ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك[١]. وكثيرًا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا: ومن أسبق أمثال هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور جون كومنين **John Comnenes** وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية[٢]. وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان؛ فنجد من بين الداخلين في الإسلام عددًا كبيرًا ينتمون إلى بيت باليولوجوس الإمبراطوري، كما هجر العالم جورج أميروتزيس الطرابيزوني **G. Amiroutzes of Trebizond** المسيحية في أعوامه الأخيرة، ودونت أسماء أخرى كثيرة من أمثال هؤلاء الأفراد[٣]. ولم يطلب الجيل الجديد إلا قبول شهادته البسيطة: «لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله»؛ وقد كتب عنها الكاتب السالف الذكر[٤] يقول: «إن الصعوبة كلها تتركز في هذه الشهادة الدينية لأنه إذا استطاع أي إنسان أن يقنع نفسه بأنه ممن يعبدون إلهًا واحدًا، فمن السهل أن تسري فيه سموم خطيئته تحت ستار الدين. هذه صخرة الإثم التي ارتطم عليها كثيرون وسقطوا في الحبائل التي جرت الهلاك علة نفوسهم، هذه هي حجر الطاحون الذي علق حول أعناق كثيرين فغاص بهم في هوة اليأس. ذلك أنه بينما كان هؤلاء الحمقى يستمتعون إلى الأتراك وهم يلعنون عبادة الأصنام، ويعبرون عن جزعهم من كل صورة أو تمثال كما لو كانت نار جهنم، ويدأبون على الاعتراف بعبادة الإله الواحد والدعوة إليها، لم يعد هناك في عقولهم

---

(١) **Turchiċae Spurcitiae Suggillatio, fol. xi. (b).**

ويتحدث ليوناردو أوف سكيو، رئيس أساقفة ميتيليني **Mitylene** الذي شهد سقوط القسطنطينية عن الجموع الكبيرة من المرتدين في الجيش المحاصر: «من الذي أحاط بالمدينة، ومن الذي علم الأتراك النظام، غير المسيحيين الأوغاد؟ إنني شاهد على أن الإغريق واللاتين والألمان والمجر، وكل نوع آخر من المسيحيين الذين اختلطوا بالترك تعلموا عملهم وعقيدتهم، والذين نصوا عقيدتهم المسيحية أخضعوا المدينة بالقوة. أيها الأوغاد الذين تنكرون المسيح، يا أتباع عدو المسيح المحكوم عليهم بعذاب الجحيم، هذه ساعتكم!» **(Sansovino, p. 258.)**

(٢) **J. H. Krause: Die Byzantiner des Mittelalters, pp. 385-6. (Halle, 1869.)**

(٣) **Hertzberg, p, 616. Finlay, vol. v. p. 118.**

(٤) **Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xix. (a).**

موطن للشك».

أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها الهرطقة البوليشية Poeulician heresy التي كانت قد قمعت في قسوة وعنف قبل ذلك ببضعة قرون. وقد كانت هذه الحركة إلى حد كبير احتجاجًا على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين كما كانت محاولة تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع. وبينما كان بعض أتباع هذه البدعة يعيش في بلغاريا حتى وقت متأخر يرجع إلى القرن السابع عشر(١)، وجد الغزاة المسلمون من غير شك كثيرًا ممن كانوا عازفين عن تعاليم الكنيسة الإغريقية وتصرفاتها.

ولما كانت كل الظروف غير ملائمة لإنشاء كنيسة من أمثال تلك الكنائس التي ظهرت في الغرب، فلا شك أن هؤلاء الذين مرقوا من الدين قد وجدوا في الإسلام جوًا أكثر ملائمة لمبادئهم. وتحملنا الأسباب المختلفة على الظن بأن ما حدث كان نتيجة للمحاولة الخائبة التي قامت بجعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية في أوائل القرن السابع عشر. وكان كيرلوس لوكاريس Cyril Lucaris الذي اختير بطريقًا للقسطنطينية خمس مرات من سنة ١٦٢١ إلى ١٦٣٨ قوة هذه الحركة الدافعة. وكان قد زار جامعات وتنبرج وجنيف في شبابه لدراسة اللاهوت في مراكز التعليم البروتستانتي. وظل بعد عودته يراسل أساتذة الإصلاح الديني في جنيف وهولندا وإنجلترا، ولكن تعاليم الكنيسة الإنجليزية ومبادئ لوثر لم تصادف رغبة صادقة في نفسه بقدر ما صادفته تعاليم جون كلفن John Calvin(٢) التي جاهد في إدخالها إلى الكنيسة الإغريقية. وقد أيد جهوده في هذه السبيل تأييدًا حارًا، هؤلاء الذين انتحلوا مذهب كلفن في جنيف بأن أرسلوا شابًا عالماً في اللاهوت، يقال له ليجر Leger ليؤازر الحركة بترجمة كتابات اللاهوتيين من أتباع

---

(١) Rycaut, vol. i. pp. 710-11. Bizzi, fol. 49. (b).

(٢) Pichler, pp. 164, 172.

كلفن إلى اللغة اليونانية[١]، كما وجد كيرلوس أعوانًا متحمسين في سفراء البروتستانت في القسطنطينية، ولا سيما سفراء الهولنديين والإنجليز الذين أمدوه بالأموال في سخاء.

ومن جهة أخرى فإن اليسوعيين الذين أيدهم سفراء الكاثوليك قد جهدوا بكل الطرق أن يحبطوا محاولة تحويل الكنيسة الإغريقية كلفنية، ونشطوا في تأييد المؤامرات التي دبرها حزب المعارضة من رجال الكنيسة الإغريقية الذين تآمروا آخر الأمر على قتل البطريق. وفي ١٦٢٩ نشر كيرلوس قانون إيمان **A Confession of faith**. ويظهر أن الغرض الأساسي الذي وضع هذا القانون من أجله هو التعبير عن مذاهب الكنيسة الأرثوذكسية تعبيرًا يخالف الكاثوليكية الرومانية بصورة تجعله منطويًا على اتفاق جوهري مع التعاليم البروتستانتية[٢].

وهو يستعير من كلفن مذاهب القضاء والقدر، والخلاص بالإيمان وحده، وينكر عصمة الكنيسة من الخطيئة، ويرفض سلطة الكنيسة في تفسير الكتب المقدسة، وينكر عبادة التماثيل. وهو في وصفه للمشيئة ولمسائل أخرى كثيرة، أميل إلى مذهب كلفن منه إلى تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية[٣]، وقد أدى نشر قانون الإيمان من حيث إنه يمثل تعاليم الكنيسة كلها التي كان كيرلوس رئيسها الروحي إلى إثارة معارضة عنيفة بين جمهرة رجال الكنيسة الإغريقية. ولم تمض على وفاة كيرلوس أسابيع قليلة حتى انعقد مجمع لرفض آرائه والحكم عليه بالحرمان.

وفي سنة ١٦٤٢ انعقد في القسطنطينية مجمع آخر لنفس الغرض أخذ في تفنيد كل مقالة من قانون كيرلوس بالتفصيل كما صنع المجمع الأول وانتهى من ذلك بأن أعلن لعنته عليه وعلى أتباعه: «نحكم على هذا القانون كله بإجماع الآراء وبعبارات لا هوادة فيها بأنه حافل بمسائل الإلحاد، ومتعارض مع حقيقة ديننا تعارضًا تامًا؛ ونعلن كذلك أن واضعه لا

(١) **Pichler p. 143.**

(٢) **Id. p. 148.** على أنه يشك في أن كيرلوس كان حقيقة هو الذي وضع هذه الوثيقة التي تحمل اسمه. **(Kyriakos, p. 100.)**

(٣) **Id. pp. 183-9.**

يمت إلى عقيدتنا بصلة، ولكنه نسب إلينا مذهبه الكلفني زورًا ويهتانًا. وكل من يقرؤونه ويحفظونه وهم يعتقدون أنه حق بريء، ويدافعون عنه بالكتابة أو الحديث، فإننا نخرجهم من جماعة المؤمنين باعتبارهم أتباعًا له، ومشايعين لزندقته، ومفسدين للكنيسة المسيحية، ونأمر أن يعاملوا مهما كانت مكانتهم ومراكزهم الكفار والفسقة. ولتكن اللعنة عليهم إلى الأبد، ولينفصلوا عن الأب والابن والروح القدس في هذا العالم وفي العالم الآتي، محرومين منبوذين، ضالين بعد الموت، وليلازمهم العذاب الأزلي[1]".

وفي سنة ١٦٧٢، انعقد مجمع ثالث في بيت المقدس لتفنيد المقالات الإلحادية التي وردت في قانون الإيمان، والدفاع عن عقيدة الكنيسة الإغريقية الصحيحة ردًا على هؤلاء الذين يظهرونها ملوثة بمذهب كلفن. وبذلك أخفقت محاولة جعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية المذهب كل الإخفاق. فقد كانت مبادئ كلفن تتعارض مع تعاليمها تعارضًا تامًا. وفي الحق أنها قررت في الأذهان كثيرًا من العقائد الدينية التي كانت أكثر تمشيًا مع آراء رجال الكنيسة الأرثوذكسية والتي كثيرًا ما هاجمتها هذه الكنيسة في مجادلاتها مع أعدائها المسلمين.

وكان هذا التقارب إلى فكرة الإسلام قد بوأ هذه الحركة التي تتطلع إلى مذهب كلفن مكانًا في تاريخ انتشار الإسلام: فإن رجلا سب عبادة التماثيل، وذم سلطة الكهنوت ونظامه في الصميم، وتمسك بمبادئ القول المطلق بالقضاء والقدر، وأنكر الحرية بالنسبة إلى الإرادة الإنسانية، وما الروح الصارمة التي يتميز بها مذهب كلفن والتي كانت تتجاوب مع التوراة أكثر منها مع الإنجيل، ليجد حقًا في الإسلام جوًا أكثر ملاءمة مما نجده في الكنيسة الإغريقية في القرن السابع عشر. وقد يكون هناك قليل من الشك في أنه كان من بين أفواج الذين دخلوا في الإسلام في خلال هذا القرن فريق قد انفصل عن كنيسة آبائهم من جراء ممالأتهم لمذهب كلفن[2] وليس لدينا معلومات واضحة تتعلق

(1) Pichler p. 226.

(2) أما فيما يتعلق بأسرى المسيحيين، فقد اشتهر البروتستانت بلا شك بين الأتراك بأنهم يظهرون ميلا إلى الدخول في الإسلام أكبر مما يظهره الكاثوليك. (Gmelin, p. 21.)

بعدد أتباع كيرولس لوكاريس ومدى تأثيرات هذا المذهب في الكنيسة الإغريقية؛ ولما كان رجال الكنيسة ذوي غيرة على سمعة كنيستهم التي اعتز أبناؤها بالدفاع عن سلامة عقيدتها، وعصمتها من الهرطقة، فإنهم رغبوا في أن يصوروا البطريق الملحد بأنه لا يمثل إلا آراءه، وذلك حين رأوا أن هذه الكنيسة قد جرّحت بسبب اتهامها بمذهب كلفن[١]، ولكن لا شك أن كان له أتباع: فقد صادف قانون الإيمان الذي نشره قبولًا في مجمع تألف من أتباعه[٢].

وأعلن حرمان أولئك الذين مالئوا هرطقته بقرار من مجمع القسطنطينية الثاني سنة ١٦٤٢، ومن مجمع بيت المقدس سنة ١٦٧٢[٣]، ولا شك أن هذا التكرار كان يكون بلا معنى لو أن أحدًا من هؤلاء الأتباع لم يكن له وجود؛ زد على ذلك أنه قد وصلت إلينا أسماء نفر قليل من هؤلاء الأتباع منهم سوفرونيوس **Sophronius**، مطر أن أثينا الذي كان من المؤيدين المتحمسين لحركة الإصلاح[٤]؛ وراهب يقال له نيكوديموس ميتاراس **Nicodemus Metaras** وكان قد استحضر مطبعة من لندن ونشر رسائل خارجة على مذهب الكنيسة، كان قد كافاه كيرلوس بكرسي المطرانية كفاء خدماته[٥]؛ والفيلسوف كورايداليوس **Corydaleus** أحد أصدقاء كيرلوس، وقد فتح مدرسة كلفنية المذهب في القسطنطينية، ورجل آخر من الإغريق يدعى جرجانوس نشر مذهبًا في التعليم المسيحي، في أسلوب الحوار، تمهيد لبث تعاليم كلفن بين مواطنيه[٦]؛ ونيوفيتوس الثاني **Neophytus**، الذي عين بطريقا في سنة ١٦٣٦ في الوقت الذي كان فيه كيرلوس منفقا في جزيرة رودس، وكان تلميذه وابنا متبنّى له؛ وقد استدعى معلمه من منفاه وتخلى له عن

---

(١) **Pichler pp. 211, 227.**

(٢) **Id. pp. 181, 228.**

(٣) **Id. pp. 222. 226.**

(٤) **Id. p. 173.**

(٥) **Id. pp. 128, 132, 143.**

(٦) **Pichler p. 143.**

كرسي البطركية[١].

وكتب كيرلوس إلى جامعة جنيف خطايا (بتاريخ يوليه ١٦٣٦) قال فيه إن ليجر كان قد فاز بعدد كبير من الداخلين في مذهب كلفن عن طريق كتاباته وتبشيره[٢]؛ ووصف في خطاب آخر بعث به إلى ليجر كيف جعل أهالي كنديا Candia يحسون بما أحدثه من تأثير[٣]. وقد نفى خلفه[٤] على كرسي البطركية إلى قرطاجنة، وهناك شنقه أشياع لوكاريس سنة ١٦٣٩[٥]. وقد قيل إن أصحاب كلفن علقوا الآمال على تعيين بارتنيوس الأول Parthenius 1 (وهو خليفة كيرلوس الثاني)؛ ولكن نهايته المفاجئة (سواء أكان موته بتجرع السم أو من جراء نفيه؛ وهذه مسألة يكتنفها الشك) قد خيبت آمالهم[٦]. وكات بارتنيوس الثاني بطريق القسطنطينية من سنة ١٦٤٤– ١٦٤٦ من أنصار مذهب كلفن المخلصين. وبالرغم من أنه لم يجسر على أن يجهر بتعليم مبادئ كلفن، إلا أن ما عُرف عنه من ممالأته لهم قد أدى إلى عزله، وإرساله إلى المنفى وشنقه[٧].

وعلى ذلك نرى أن تأثير مذهب كلفن كان من غير شك أكثر انتشارًا مما كان يريد أعداء كيرلوس لوكاريس أن يقرروا. وكما قلنا آنفا، كان أولئك الذين أبوا أن يسلموا بقرارات الحرمان التي قضت بها المجامع على زعيمهم، أكثر ائتلافا من غير شك مع جيرانهم المسلمين منهم مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين أقصوهم عن بيئتهم. وفي الحق أنه ليس لدينا شواهد قاطعة تدلنا على ما كان لهذا المذهب في تركيا من مؤثرات يسرت إدخال الناس في الإسلام[٨]. ولكن مع انعدام أي تفسير آخر في هذا الصدد،

---

(١) Le Quien, tom. i. col. 334.

(٢) Pichler, p. 172.

(٣) Hefele, vol. i. p. 473.

(٤) وهو Cyril II. Of Berrhoea.

(٥) Le Quien, tom. i. col. 335.

(٦) Id. tom. i. col. 336.

(٧) Id. tom. i. col. 337.

(٨) على أنه حدث في محاولة سابقة قام بها علماء المذهب البرتستانتي في ثوبنجن (١٥٧٣) لإدخال تعاليم كنيسة الإصلاح الجديدة في الكنيسة الشرقية، أن اعتنق أحد علماء سامتخيث المسيحيين في جورجيا The Vaivode

يظهر حقًا أن من الفروض التي يقرها العقل أن مثل هذه الأحوال كانت من بين العوامل التي زادت زيادة هائلة في عدد المرتدين عن المسيحية من الإغريق في أواسط القرن السابع عشر، وهو وقت قيل فيه إن عدد المرتدين عن المسيحية من الطبقات المتوسطة والمنحطة في المجتمع كان أكبر منه في أي وقت مضى[١].

وقد تواتر ذكر حالات الارتداد عن المسيحية من بين رجال الكنيسة، بل من بين أعظم رؤساء الكنيسة شأنًا وأسماهم مقامًا، كالذي يروى عن أحد مطارنة رودس السابقين[٢].

وقد قيل إن فريقا من الأهالي المسيحيين في كورنثة كانوا في سنة ١٦٧٦ يدخلون كل يوم في دين الأتراك، وإن ثلاثة من القسس قد أصبحوا مسلمين قبل ذلك بعام[٣]. وفي سنة ١٦٧٩ سُجلت وفاة أحد الرهبان المرتدين[٤]. وفي مناسبة ختان مصطفى ابن السلطان محمود الرابع سنة ١٦٧٥، دخل في الإسلام عدد لا يقل عن مائتي شخص في غضون ثلاثة عشر يومًا من الأفراح الشعبية[٥] وقد نجد أمثلة أخرى كثيرة في الكتابات التي ترجع إلى هذا العهد.

Quarquar of (Samtskheth قانون اعتراف أوجسبرج، ولكنه دخل في الإسلام سنة ١٥٨٠) Joselian, p. 140).

(١) Scheffler, § 53-6. Finlay, vol. v. pp. 118-19.

(٢) Hammer (1), vol. vi p. 94.

(٣) Spon, vol. ii. p. 57.

(٤) Hammer (1'), vol. vi. P. 364.

(٥) Early Voyages and Travels in the Levant, edited by J. Theodore Bent, p. 210 (London, 1893). ونظير ذلك ما يختم به ميشل بوديير Michel Baudier وصفه للمهرجانات في القسطنطينية التي أقيمت بمناسبة ختان مُحَمَّد الثالث في النصف الأخير من القرن السادس عشر مقرونًا بوصف دخول عدد كبير من المسيحيين في الإسلام: «وفي أثناء شهود هذا الاحتفال المهيب، هرع الإغريق التاعسون إلى هذا المكان ليدخلوا في الإسلام أفواجًا، وقد هجر بعضهم المسيحية تخلصًا من ظلم الأتراك، وبعضهم هجرها أملًا في منفعة خاصة، وقد وجد أن عدد هؤلاء المنبوذين قد تجاوز أربعة آلاف نفس»

The History of the Serrail, and of the Court of the Grand Seigneur Empereur of the Turkes, pp. 93-4. (London, 1635.) Histoire generale du Serrail, et de la Cour du Grand Seigneur, Empereur des Turcs, pp. 89-90. (Faris, 1631.)]

وفي سنة ١٦٦٣ أجاد مؤلف معاصر في وصف الاتجاه العقلي الذي اتصف به أمثال هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام: «عند ما تخالطون الأتراك في مجرى حياتهم العادية، تراهم يقيمون الصلاة، ويرتلون حتى مزامير داود، ويمنحون الصدقات ويفعلون غير ذلك من أعمال الخير، ويعتقدون في المسيح اعتقادًا ساميًا، ويتناولون التوراة في شرف عظيم إلى غير ذلك؛ هذا فضلًا عن أنه كان يمكن أن يصير أي جاهل، خوري كنيسة إذا سعى إلى الباشا التركي بالهدايا؛ ولن يحضكم هذا الخوري كثيرًا على المسيحية. حينئذ سوف تنتهون إلى التفكير في أنهم قوم صالحون، وأن من الممكن جدًا أن يدركهم الخلاص؛ وسوف تنتهون إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدرككم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكا مسلمين. بذلك سوف يمّحي من أذهانكم في سهولة ويسر سر الثالوث المقدس، وابن الله المصلوب، وسائر أسرار الدين الكثيرة التي يلوح أنها غير معقولة بصورة ما في نظر الشخص الأمي، وإذا بروح المسيحية تموت في نفوسكم من حيث لا تشعرون؛ وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام(١)».

ويتحدث توماس سمث الذي كان في القسطنطينية سنة ١٦٦٩ عن عدد الداخلين في الإسلام من المسيحيين حوالي هذا الفترة، ولكنه ينسب إليهم بواعث أكثر خسة: «من المحزن أن نحصي هذا العدد الضخم من القوم الناعسين الذين انقلبوا أتراكًا؛ فأسلم فريق بدافع اليأس البالغ، وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفارة وإهاناتهم؛ وأسلم فريق آخر نتيجة مهزلة سقيمة هوجاء ليتبوؤوا مكانة يملكون بها ناصية الحكم، وينزلون الإهانة بغيرهم من الناس، وأسلم فريق آخر تخلصًا من ألوان العقاب والبلاء جزاءً بما ارتكبوه من جرائم، ولكي ينعموا بالحريات التي تنطوي على الوحشية والتي قدسها مُحَمَّد باعتباره مثلًا قد اقتدى به أتباعه.

هذه هي البواعث والأسباب المهمة المغرية التي دفعتهم إلى هذا الارتداد، وما هي إلا دوافع تنشد الراحة واللذة والرخاء بل تنشد العبث والآثام؛ ذلك أنه لا يمكن أن

(١) Scheffler, § 55.

نتصور أن يُغرَى أحد من الناس عن طريق الإقناع العقلي باعتناق هذه العقيدة التركية وأباطيلها[١]». ولا نجد بعد هذه الفترة إلا النزر اليسير مما سجله التاريخ عن الداخلين في الإسلام؛ ولكن متزايه **Motraye** يورد ذكر كثير من المرتدين الذين انتقلوا إلى الإسلام في القسطنطينية سنة ١٧٠٣؛ وكان من بين هؤلاء قسيس فرنسي، وفريق آخر من الفرنسيين الكاثوليك، وبعض قساوسة من أزمير[٢].

وهناك ظاهرة أخرى في حالة الكنيسة الإغريقية، ساهمت في تضاؤل عددها، تلك هي فساد رعاتها وانحطاط حالتهم، ولا سيما الطبقة العليا من رجال هذه الكنيسة. وعرضت مقرات الأساقفة ورؤساء الأساقفة للبيع بالمزاد بأغلى الأثمان، وسعى المشترون إلى تعويض خسائرهم باغتصاب ضرائب من كل نوع من رعاياهم، فبهظوا المسيحيين المساكين بالضرائب العادية وغير العادية، وجعلوهم يشترون كل الأسرار المقدسة بأسعار باهظة، وهي التعميد، والاعتراف، وقداس العشاء الرباني، وحالات الغفران، وحق الدفن المسيحي. بل عقد فريق من رجال الكنيسة تحالفا غير شريف مع الإنكشارية، فكانت أسماء كثير من الأساقفة وأسماء أسراتهم مدونة في سجل إحدى الأرط أو الكتائب الإنكشارية ليضمنوا على الوجه الأكمل حصانة من طغيانهم، وليتخلصوا من معاقبتهم على ما ارتكبوا من جرائم في ظل حماية هذه الشرذمة التي كان قد أتاح لها ضعف الحكام العثمانيين أن تتبوأ مثل هذا المركز القوي في الدولة[٣].

وإن الشواهد التي أثبتها شهود عيان من المعاصرين عن المسلك الجائر الذي ظهر به رجال الكنيسة الإغريقية، لتقدم لنا صورة مخفية عن آلام المسيحيين، فقد كتب تورنفورت **Tournefort** في سنة ١٧٠٠م بعد أن وصف انتخاب بطريق جديد فقال: «لا داعي مطلقًا للشك في أن البطريق الجديد لن يفعل خيرًا في عهده، فقد نتج الظلم عن بيع الوظائف الكنسية: وكان أول شيء عمله أن عرّف حاشية السلطان بجميع رؤساء

---

(١) **Thomas Smith: An Account of the Greek Church, pp.- 15-16. (London 1680.)**

(٢) **A. de la Motraye: Voyages en Europe, Asie et Afrique, vol. j. pp. 306, 308. (La Haye, 1727.)**

(٣) **Pitzipios, Seconde Partie, pp. 83-7. Pichler, p. 29.**

أساقفة رجال الكنيسة وأساقفتهم. وكان أعظم ما عني بدراسته هو معرفة موارد كل رئيس من رؤساء الكنيسة على وجه التحقيق؛ ففرض ضريبة عليهم، وأردف ذلك بخطاب إلى كل منهم يشدد فيه النكير عليهم بإرسال المبالغ المستحقة، وإلا حكم على أبرشياتهم ببيعها في المزاد بأبهظ الأثمان.

ولما كان رؤساء الكنيسة قد تعودوا هذه الحرفة لم يبقوا قط على أحد من مساعديهم؛ وهؤلاء المساعدون كانوا يعذبون الآباء، والآباء يجردون أبناء رعية الخوري من أموالهم. وقلما كانوا يرشون أقل نقطة من الماء المقدس إلا إذا تقاضوا ثمنها مقدمًا. فإذا ما احتاج البطريق بعدئذ إلى مال احتال لجمعه بالبيع للأتراك في المزاد بأبهظ الأثمان؛ ومن أدى ثمنا أغلى، ذهب إلى بلاد اليونان يطالب رؤساء الكنائس بحقه أمام القضاء. وكان التركي عادة يغتصب اثنين وعشرين ريالًا عن كل عشرين ألفًا مما يفرض على رجال الكنيسة، حتى لقد يحصل أحيانًا على ألفي ريال كفاء ما يبذله من جهود. هذا فضلًا عما يعهد إليه من أعمال في كل أبرشية، وبمقتضى الاتفاق الذي كان عليه أن يبرمه مع البطريق، كان من حقه أن يحرم أو يمنع رؤساء الكنائس الذين يرفضون أداء ضريبتهم من المناصب الدينية كلها[1]». بل قيل إنه حتى رجال الكنيسة المسيحية كانوا يحملون أبناء رعية الخوري ويبيعونهم بيع الرقيق، ليحصلوا على المال اللازم لشراء الوظائف الكنيسة[2].

وقد وجدت ألوان الإرهاق التي وقعت في القرن السابع عشر نظيرًا لها في القرن التاسع عشر؛ فكانت متاعب المسيحيين التابعين للكنيسة الإغريقية في البوسنة قبل الاحتلال النمساوي، تفسر لنا تمامًا كلمات تورنفورت. فقد تعود مطران سيراجيفو Serajevo أن يغتصب ما مقداره عشرة آلاف من الجنيهات كل عام من رعاياه المساكين، وهو مبلغ يساوي تمامًا ضعفي راتب الوالي التركي نفسه؛ ولكي يرفع هذا المبلغ الضخم

(1) Tournefort, vol. i. p. 107.

وكثيرًا ما استخدم سبون Spon نفس هذه اللهجة في جـ١ ص٥٦.

(2) Gaultier de Leslie, p. 137.

كان يبتز أموال أبناء رعية الخوري التاعسين بكل وسيلة ممكنة، وصدرت الأوامر للسلطات التركية بمساعدة رجال الكنيسة في جباية ضرائبهم، وتحملت القرى المسيحية بأسرها نصيب المدن التي ابتزت أموالها في حالة رفضها أو عجزها غالبًا عن مجاراة رؤساء الكنائس المسيحيين في مطالبهم الباهظة[١]. وطالما أثار مثل هذا الجور الفادح في نفوس الزعماء الروحانيين الذين كان ينبغي أن يحموا الأهالي المسيحيين روح التمرد كلما سنحت لهم الفرصة[٢]. فليس بغريب حينئذ أن نعرف أن كثيرًا من المسيحيين دخلوا في الإسلام لكي يتخلصوا من مثل ذلك الظلم[٣].

وقد قيل إن ظلما كنسيا من نوع آخر أشد وطأة، كان سببًا في تحول أسلاف جماعة قليلة إلى الإسلام يبلغ عددها حول ٤٠٠٠ من جنوبي رومانيا من منطقة **Noanta** في إقليم مجلن **Meglen** التابعة لولاية سلونيكا، وهم يروون أن بطريق القسطنطينية في القرن الثامن عشر أقنع السلطان الحاكم وقتئذ بأن المسيحيين الذين يتكلمون اليونانية، هم وحدهم الذين يمكن أن يكونوا رعايا مخلصين للدولة العثمانية. عند ذلك حرم السلطان على المسيحيين ألا يتكلموا غير اليونانية، وأنذرهم بقطع ألسنتهم إن لم يفعلوا. فلما بلغ ذلك أهل نُوانتا هرب جانب من السكان إلى الغابات، وأسسوا فيها قرى جديدة؛ أما الذين بقوا منهم فقد اعتنقوا الإسلام، وعلى رأسهم أسقفهم، حتى يبقوا بذلك على لغتهم الأصلية[٤].

---

(١) **A. J. Evans, 267.** ونظير ذلك ما يقوله ماكنزي وإربي: «في معظم جهات الصرب القديمة كانت الفكرة التي وجدناها منسوبة إلى أحد الأساقفة، عبارة تتعلق بشخص انتزع تلك الفلوس القليلة التي كان الأتراك قد خلفوها» (**P. 258.**) وأورد أحد الكتاب وصفًا آخر لرجال الكنيسة الإغريقية في (**Tome 97, P. 336**) **Revue des Deux Mondes** إذ قص لنا القصة التالية: «في مستهل هذا القرن، في تيرنوفا، تلقى أحد البانوات ذات يوم، ويدعى يواقيم، وكان محبوبًا من رعيته، مكروها من أسقفه، أمرًا بعرض ضريبة على الروث في الإسطبل الكنسي، ولكنه لم يقبل: عندئذ انهال عليه الخدم ضربًا بفرشاة كبيرة ذات أصابع. ولكن صاحبنا كان قويًا: فناهضهم، وفزع إلى القاضي بعد أن ترك ثوبه رهينة. ولم تغرب الشمس عليه حتى كان مسلمًا صالحًا»

(٢) **Pitzipios, Seconde Partie, p. 87.**

(٣) **Id. Seconde Partie, p. 87. Pichler, p. 29.**

(٤) **Lazâr, p. 223.**

وعلى الرغم من أن جهرة رجال الأبرشية كانوا أبرياء من التهم التي وجهها سادتهم إليهم[1]، كانوا لا يزالون أميين وعلى درجة كبيرة من الجهل، وقد قيل في نهاية القرن السابع عشر إن من العسير أن نجد إثنى عشر شخصًا في جميع الممتلكات التركية يجيدون اللغة اليونانية القديمة إجادة تامة؛ وكانت القدرة على القراءة من المزايا الكبرى في نظر رجال الكنيسة، على حين كان هؤلاء الأشخاص على جهل تام بمعاني الألفاظ التي وردت في كتب الصلوات[2].

وبينما كان في المجتمع المسيحي في ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور كان في أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب. وكان تفوق العثمانيين في عصورهم الأولى، إذا ما قورن بانحطاط زعماء الكنيسة المسيحية ومعلميها، لا بد أن يؤثر بطبيعة الحال في العقول الزاهدة التي سئمت الأطماع المنبعثة من الأنانية، وبيع الوظائف الكنسية، وفساد أفراد الكنيسة الإغريقية. وطالما أثنى الكتاب المسيحيون على غيرة هؤلاء الأتراك وصلابتهم في حياتهم الدينية، وحماستهم في أداء طقوسهم التي رسمها لهم دينهم، ومظهر الحشمة والتواضع البادي في زيهم وأسلوب معيشتهم، وعدم التباهي والادعاء، وبساطة الحياة التي تلاحظ حتى في العظماء أو الأقوياء منهم[3].

ويثني مؤرخ السفارة التي أرسلها الإمبراطور ليوبولد الأول إلى الباب العالي من سنة ١٦٦٥– ١٦٦٦ ثناءً خاصًا على تعبد الأتراك وانتظامهم في الصلاة، بل يذهب بعيدًا فيقول: «يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين. إن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة في أداء شعائرهم الدينية، أما المسيحيون فلم يظهروا شيئًا من ذلك في دينهم، بل أكثر من ذاك كله أننا قد عرفنا بالتجربة المتدين بين المسيحيين ذلك الذي لا تراه، في أثناء الصلاة، لاهيًا بعينيه: لا ترى في أثنائها شخصًا غير متعلق بموضوع صلاته، ولا

---

(١) Finlay, vol. iv. pp. 153-4.

(٢) Tournefort, vol. i. p. 104. Cf. Pichler, pp. 29,31. Spon, vol. i. p. 44.

(٣) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xiii. (b); fol. xv. (b); fol. xvii. (b); fol. xx. (a). Veniero, pp. 32,36. Busbecq, p. 174.

شخصًا لا يبدو بين يدي خالقه في مظهر التبجيل الظاهري الذي يتطلبه من المخلوق»[١].

حتى الأخلاق في الجندية تلقى حظها من الثناء، فقد أخبرنا كاتب البعثة التي أرسلها شارل الثاني إلى السلطان أن سكان البلاد، في أثناء مسير جيش من الجيوش، لم يظهروا أية شكوى من أنهم خسروا شيئًا أو أن نساءهم قد تعرضن لسوء المعاملة. كل الحانات الممتدة على خط سير الجنود قد أغلقت وختمت بالشمع قبل وصول الجيش بيومين أو ثلاثة، ولم يسمح ببيع النبيذ للجنود، وإلا عرضوا أنفسهم لعقوبة الموت[٢].

وكثيرًا ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنون للعثمانيين محبة ولا ودا، تقدمة المدح والثناء على فضائل الأتراك؛ فمن أولئك كاتب كان له رأي سيء في عقيدتهم[٣] [†]، يتحدث عنهم بقوله: «حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية؛ وفي الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أي حد هؤلاء المسلمون ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم؛ وإلى أي حد هم متفانون في إخلاصهم، قانتون في مساجدهم؛ وإلى أي حد هم مطيعون لرئيسهم الروحي، حتى إن التركي العظيم نفسه لا يحاول أمرًا إلا بعد مشورة المفتي؛ وإلى أي حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم حيث وجدوا وأيا كانت مشاغلهم؟ ما أشد مراعاتهم دائمًا لصومهم من الصباح حتى المساء طول أيام الشهر بلا انقطاع؛ وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم؛ وما أعظم ما يُرى من عنايتهم بالغرباء في نُزُلهم، سواء بالفقير أو النازح المسافر؛ لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جمودنا سواء في عبادتنا أو في تراحمنا، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا، فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا؛ ولا شك أن عبادتهم وتقواهم

---

(١) Gaultier de Leslie, pp. 180,182.

(٢) Rycaut, vol. i. p. 689. See also Georgievitz, pp. 53-4. and Menavino, p. 73.

(٣) Alexander Ross, p. ix.

(†) ذكر المؤلف أمثلة من التهم التي رمى بها إسكندر روس القرآن الكريم وهي تهم باطلة أضربنا عن ذكرها.

وأعمال الرحمة فيهم، هي الأسباب الرئيسة لنمو الدعوة المحمدية»[1].

وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال: «نجد كثيرين من الإغريق من ذوي المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج في خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء، كانوا يدخلون في دين محمد بمحض إرادتهم. ولا بد أنه كان لتفوق المجتمع التركي من الناحية الخلقية شأن كبير في هذا التحول إلى الإسلام الذي كان كثير الوقوع في القرن الخامس عشر بقدر ما كان للطموح الشخصي للأفراد من أثر في هذه السبيل».

وإن جيلا قد راقب انحلال السلطان التركي في أوربا والتناقص المطرد في ممتلكاته، وتعود أن يسمع قول من يتحدثون عنه بأنه (الرجل المريض)، الذي يصير إلى الفناء العاجل، ليجد من العسير أن يدرك تلك المشاعر التي بعثتها الدولة العثمانية في أيام نهضتها الأولى في أوربا. فإن نجاح الأسلحة التركية بهذه الصورة السريعة النطاق قد ملأ عقول الناس فزعا ودهشا؛ فقد سقطت الممالك المسيحية، الواحدة تلو الأخرى، في أيديهم: فبلغاريا والصرب والبوسنة والمجر كلها قد تخلت عن استقلالها باعتبارها ولايات مسيحية. وشاهدت جمهورية البندقية الشامخة ممتلكاتها تغتصب من يدها الواحدة تلو الأخرى، حتى أصبح أسد سان مارك وحده يسيطر على سواحل بحر الأدرياتي. حتى رومة (المدينة الخالدة) نفسها قد استهدفت للخطر بتسليم أوترنتو **Otranto**.

وإن الآداب المسيحية، في النصف الأخير من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حافلة بالأخبار المفزعة التي تتعلق بالمصير الذي كان يهدد أوربا المسيحية لولا توقف تقدم الأتراك الناجح، وتمثل التركي في نظرهم سوطا في يد الله قد صبه على شعبه معاقبة له على كفره وخطيئته[2]؛ أو هو من جهة أخرى، القوة الشيطانية المتخاذلة التي تعمل على هدم المسيحية تحت ستار من الدين يقوم على الرياء.

---

(1) **Finlay, Vol, v. p. 29.**

(2) **Schiltberger, p. 96.**

ولكن أهم ما نلاحظه هنا، أن بعض الناس بدأ يسأل: «هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذي لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول؟ هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدي كما يتعرض الرجل الواحد؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل، وكان الناس جميعًا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته. كيف استطاعوا أن يقووا على الحق ما دام الله يعين على الحق ويؤيده؟ كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل[١]»؟

فأمثال هذه الأفكار، كما تخبرنا الروايات، قد أغرت الشعوب المسيحية التي عاشت في ظل الحكم التركي إغراءً قويًا، كما أغرت بنوع خاص، هؤلاء الأسرى المسيحيين البائسين الذين راقبوا الأعوام تمر متثاقلة دون أمل في التخلص أو راحة من الشقاء الذي هم فيه. فهل يمكن أن يستولي علينا الدهش حين نجد مثل هذا الرجل يسأل؟ «لا شك لو أن الله كان راضيًا بالدين الذي تشبثتم به لما هجركم على هذا النحو، ولساعدكم لتحصلوا على الحرية ولتعودوا إليها مرة أخرى. أما وقد أغلق الله منافذ الحرية دونكم، فربما قضت مشيئة الله أن تتخلوا عنها، وأن تقترنوا بتلك الطائفة، وأن يكون خلاصكم على يديها»[٢].

وإن العبد المسيحي الذي يصور على هذا النحو تلك الشكوك التي تحيك في صدره كلما مرت السنون البطاء، دون أن تجلب له تحررًا وخلاصًا، إنما يعبر هنا من غير شك عن الأفكار التي خطرت لكثير من المسيحيين المنكودين الذين شملهم الاستعباد وظلوا عليه، حتى لجأ آخر الأمر إلى تحطيم أغلال دينه القديم ليدخل في الإسلام. وإن كثيرين من الذين كانوا على أهبة أن يموتوا شهداء في سبيل الدين المسيحي، لو أنهم

---

(١) **Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xii. (b). xiii. (a).**

(٢) **Id. Fol. Xxvii. (a).**

خيروا بين القرآن والسيف كما تروي الأساطير، أحسوا إحساسًا أخذ يقوي شيئًا فشيئًا، بعد أن قضوا سنين طوالًا في الأسر، بتأثير الإسلام من الوجهتين النظرية والعملية؛ وكسبت الإنسانية كثيرًا من الداخلين في الإسلام منهم في الوقت الذي أخفقت فيه وسائل العنف[١].

ذلك أنه بالرغم من أن حظ كثير من أسرى المسيحيين كان غاية في التعس، نجد بعضهم الآخر، ممن شغل مراكز في خدمة خاصة القوم، لم يكن في الغالب أحط شأنًا من خدم المنازل في سائر أوربا. وبعد أن نظمت الشريعة الإسلامية مسألة الرق، انتزع عن الرق كثير من أشد مظاهره غلظة وفظاظة. ويظهر أنه لم يكن على الأقل في تركيا، شيء من أمثال تلك الأعمال الوحشية والفظائع التي كانت في ولايات القرصنة في إفريقية الشمالية. كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل إنه كان للعبد أن يقاضي سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضي من اختلاف طباعهما اختلافًا بينا إلى حد تعذر الإنفاق بينهما، فله أن يرغم السيد على بيعه[٢].

وكانت حالة الأسرى المسيحيين تختلف بطبيعة الحال باختلاف الظروف وباختلاف قدرتهم على تهيئة أنفسهم لحياة تكتنفها المتاعب؛ فالشيوخ والقسس والرهبان وأصحاب المنبت الكريم كانوا أكثر الناس تحملا، على حين لقى الأطباء والصناع من سادتهم احترامًا باعتبارهم خدامًا قدر أدوا على خير الوجوه ما أنفق عليهم من مال[٣]. أما الرقيق المحكوم

---

(١) «وفي الوقت الذي لم نقض على أجسامهم بما أظهره لهم من رعاية وتقوى، صمم بدهائه الشيطاني على أن يقتل أرواحهم بتجريدهم من إيمانهم. ويمكن أن يشهد على هذه الحقيقة، تلك الجموع من المؤمنين الذين لا يدخلون تحت حصر، ذلك أنه على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على غاية الاستعداد بأن يموتوا في سبيل العقيدة المسيحية، ومن أجل المسيح، وتخليصًا لأرواحهم، قد فنت فيهم، بإنقاذهم من الموت الجسدي وحملهم إلى الأسر، سمومه، فأفسدهم بمرور الزمن، ودفعهم بخسة إلى أن ينكروا إيمانهم بالمسيح» **Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. i.; cf. fol. Vi. (a).**

(٢) **Menavino, p. 96. John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. p. 819. (London, 1764.)**

(٣) «وينبغي أن نقرر فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من حذفهم ومهارتهم معاملة أحسن من تلك التي كان المصاري يعاملون بها خدمهم وعبيدهم، فكان الخادم الماهر في فن من الفنون يتمتع بكل ما يرجوه الحر ولا ينقصه إلا التحرر». (**G.C. von den Driesch, p. 132.**)

عليهم بالسجن فقد كانوا بطبيعة الحال أشد الناس تحملًا للمتاعب. وفي الحق أن ألطف المعاملات لم يستطع إلا في القليل النادر أن يخلصهم من الشدائد التي اقترنت بمثل هذا الملك(١). زد على ذلك أن حظ العبيد الذين كانوا ملكًا للدولة كان أكثر تعسا من أولئك الذين كانوا ملكًا للأفراد(٢).

وقد جرت العادة بأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية في حرية، وكان لهم في سجون الدولة في القسطنطينية قساوسة ومعابد خاصة بهم، كما سمح لرجال الكنيسة بأن يقوموا بإلقاء عظات دينية تعزية للأرقاء المحكوم عليهم بالسجن(٣). وكان عدد العبيد المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام عظيمًا؛ وقد ذكر بعض حالات قليلة كانوا يهددون فيها، ويعاملون معاملة سيئة لإغرائهم على الارتداد. ولكن جرت العادة بان سادتهم كانوا لا يرغمونهم على ترك دينهم إلا في النادي(٤)، وإنما كانوا يضغطون عليهم أشد الضغط في خلال السنوات الأولى من استرقاقهم، ثم بعد ذلك يتركونهم لأنفسهم يتبعون الدين الذي يشاءون(٥).

---

(١) يقول سير وليم ستيرلنج ميكسويل **W. Stirling-Maxwell** عن هؤلاء: «إن المساكين التاعسين الذين كانوا يعملون مجذفين في أية سفينة حربية تركية، عاشرا عيشة ليست أشد ولا أخف بؤسا من هؤلاء المجرمين المحكوم عليهم تحت شارة الصليب. فقد كان العمل الشاق، والحياة المريرة، والصدمات القاسية من نصيب الفريقين على سواء. وفي البر، ربما كان السجين التركي أو المغربي أشد جهلًا وقذارة من سجين في نابلي أو في برشلونة؛ أما في البحر، فله إنما جاز أن يكون للبؤس درجات فربما تميز المسيحي المكبل في الأغلال التركية من هذه الناحية؛ ذلك أن فريق المجذفين في سفن السلطان كانوا ملكا للقبطان في الغالب؛ والمفروض أن الشفقة الطبيعية التي تكون المالك على ما يملك، قد تتدخل أحيانًا في أداء واجبه».

(Vol. i. 102-3.)

(٢) **Gmelin, p. 16.**

(٣) **Id. p. 23.**

(٤) **John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. p. 810.**

(٥) وتعد السنون الأولى بالنسبة إلى أمثال هؤلاء التاعسين أشقى سني حياتهم، وخاصة إذا ما كانوا حديثي السن؛ إذ أن الترك حاولوا أن يدخلوا الناس في دينهم بالملاطفة، فإن لم يجد ذلك فبالشدة. فإذا ما انقضت سنوات الشدة هذه، وجدوا الرق عند الترك محتملًا أكثر منه عند غيرهم». (**G.C. von den Driesch, p. 132.**). أضف إلى ذلك ما يقوله جيور جيفز من أن أولئك الذين تمسكوا بالدين المسيحي قد أعتقوا بعد فترة معينة. «إذا استمروا على الديانة المسيحية، حددت لهم فترة معينة للخدمة يصبحون بعد انقضائها أحرارًا. أما عن أولئك الذين ينكرون ديانتنا، وأن

ولهذا غير أكثر العبيد دينهم ودخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم؛ ولما كانت السفارات المسيحية تخشى دائمًا من يوم لآخر من أن ينقلب بعض مواطنيهم من الخدم الذين كانوا قد صحبوهم إلى القسطنطينية إلى أوطانهم أتراكا[١]، كان من اليسير أن ندرك أن العبيد الذين كانوا قد فقدوا كل أمل في الرجوع إلى أوطانهم وكانوا لا يجدون في محيطهم إلا القليل من التشجيع على الاستمرار في التعليم مدة حياتهم الأولى، لم يكن بد من أن يخضعوا للمؤثرات التي أحاطت بهم، وألا يحسوا بقيود كبيرة تمنعهم من الدخول في جماعة جديدة وفي دين جديد.

وقد قال عنهم رحالة إنجليزي عاش في القرن السابع عشر[٢]: «كان قليل منهم يعود إلى وطنه؛ وأقل منهم من كان له من الشجاعة الثبات ما يمكنه من الاحتفاظ بدينه المسيحي الذي تعلمه. وما كان تعلم هؤلاء إلا تافها ولا معرفتهم بمبادئ المسيحية وأصولها إلا ضئيلة. ومن ثم كان بعضهم يأوي إلى ديانة الترك فزعًا مما ران على قلبه من شدائد العبودية من الجزع والحقد المرير. كما أطمع بعضهم الآخر ما كانت تتيحه الشريعة الإسلامية للمسلمين من فنون المجاملة، والتملق للذائذ، وما أملوه في جعل حياتهم أيسر حالًا وأكثر رخاء بتغيير دينهم؛ فلما لم يعد أمل في إصلاح حالهم، تركوا مخلصهم ودينهم المسيحي، وسرعان ما نسوا وطنهم الأول وأصبحوا لا يعدون أنفسهم غرباء، بل ادعوا أنهم مواطنون».

هناك فترة محدودة للخدمة وحق العودة إلى الوطن، فأملهم في الحرية لا ينحصر إلا في إرادة السيد». (P. 87.). كذلك انظر Menavino, p. 65. ويذكر كانتاكوزينوس Cantacuzenos هذه الفترة على أنها سبع سنوات: «إن عبيدهم ينالون معاملة طيبة لأن محمدًا أمرهم فيما أمرهم به ألا يظل عبد في العبودية أكثر من سبع سنوات، لهذا فإنه لا أحد يحاول، أو قادرًا ما يحاول المرء أن يخالف ذلك الأمر» (P. 128.)

(١) «وكان لدى النصارى المخلصين لعقيدتهم الذين ذهبوا إلى تركيا أو إلى بلاد إسلامية أخرى سبب كاف للحزن على ما كان من كثرة ارتداد أبناء دينهم. وتفيض كتب رؤساء طوائف المترهبين بالشكوى من ذلك الأمر. أما الأرقاء فقد كان من الممكن أن يمتزج شعور الإنكار لموقفهم بشعور الرثاء لحالهم. على أنه طالما تألم المسيحي حين كان يرى أحرار قومه يدخلون في الإسلام. وكان السفراء لا يأمنون في أي يوم أن ينصرف عنهم أفراد من حاشيتهم. ولقد أحسنوا صنعًا حين كانوا لا يخمدون النهار حتى يقبل عليهم الليل».
(Gmelin, p. 22.) Cf. Von den Driesch, p. 161.

(٢) Thomas Smith, pp. 144-5.

وقد اعتمد كثير بطبيعة الحال على الخلق الشخصي الذي تميز به عبيد المسيحيين أنفسهم على اختلافهم؛ فقد وقع الكاتب المجهول الذي نقلنا عنه كثيرًا فيما سبق، في أسر طويل الأمد، مكنه من أن يتحدث بجدارة عن حالتهم، فقسمهم إلى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى تشمل هؤلاء الذين قضوا أيامهم في بساطة تامة، لا يبالون بتكليف أنفسهم مشقة تعلم شيء عن ديانة سادتهم، وهؤلاء قد اكتفوا بعلمهم أن الترك قوم من الكفار، ولهذا تجنبوا، بقدر ما سمحت حالة استرقاقهم ونير استعبادهم، أن يكون لهم أية علاقة بسادتهم ولا بعبادتهم، خوفًا من أن يضلوا بخطاياهم، واجتهادًا في مراعاة الدين المسيحي بقدر ما تسمح به معرفتهم ونفوذهم.

وتتألف الطبقة الثانية من هؤلاء الذين يقودهم حب الاستطلاع إلى الدراسة والبحث في أفعال الترك. فإذا ما اتسع وقتهم بمعونة الله، ليغوصوا في طلب أسرارهم، وأتيح لهم الإدراك الكافي لاختبارهم، ونور العقل ليلتمسوا منه الشرح والتفسير، فإنهم لا يخرجون من هذه التجربة بحيث لا يمسهم ضر فحسب، بل يكسبون لدينهم قوة على قوة.

أما الطبقة الثالثة فتتألف من هؤلاء الذين اختبروا الدين الإسلامي دون أن يتخذوا لأنفسهم الحيطة اللازمة، فأخفقوا في الغوص إلى أعماقه والاهتداء إلى تفسيره، ولذلك ضلوا؛ فلما اعتقدوا أن باطل الأتراك هو الحق، فقدوا دينهم ودخلوا في دين المسلمين الزائف، وبهذا لم يجروا الخراب على أنفسهم فحسب، بل كانوا قدوة سيئة لغيرهم. وكان عدد أمثال هؤلاء لا يدخل تحت حصر[١].

لم يخلص الدخول في الإسلام كما أكد بعض المؤلفين، العبد من الرق، ولم يطلق سراحه[٢]، لأن العتق كان باختيار السيد وحده، وهو الذي طالما وعد حقًا بتحريره لا من

---

(١) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. xxxv. (a).

(٢) M. d'Ohsson, vol. iii. p. 133. Georgieviz, p. 87. (quoted above.) Menavino, p. 95.

طريق أداه فدية ولكن بالدخول في الإسلام[١]، ولكنه من ناحية أخرى كان كذلك يرغب بمحض إرادته في أن يحرر العبد المسيحي، حتى ولو كان قد احتفظ بدينه، بشرط أن يكون قد برهن على أنه خادم أمين، كما كان يرغب في أن يجري عليه رزقًا لكبر سنه[٢].

وكان هنالك آخرون شأنهم كشأن هؤلاء العبيد المسيحيين ابتعدوا عن بيئاتهم ومجتمعاتهم، فوجدوا أنفسهم قد انقطعوا عن الروابط القديمة، وألقي بهم في وسط جماعة مدفوعة بمثل عليا: اجتماعية ودينية من طراز جديد تمام الجدة. فهذه الجموع الحاشدة من العمال المسيحيين الذين قدموا بعد طوافهم في البلاد المفتوحة في القرن الخامس عشر إلى أدرنة وسائر المدن التركية للبحث عن عمل، قد أقنعوا بسهولة ويسر أن يستوطنوا هذه البلاد وأن يدخلوا في الإسلام[٣].

كذلك حدث للأسر المسيحية التي نقلها مُحَمَّد الثاني من الولايات المغلوبة على أمرها من أوربا إلى آسيا الصغرى[٤]، فمن المحتمل أنها انتظمت تمامًا في مجموع الأهالي المسلمين على درجات لم تكن في الغالب محسوسة، كما كانت الحال مع الأرمن الذين حملهم الشاه عباس الأول إلى فارس (١٥٨٧– ١٦٢٩م)، والذين يظهر أن معظمهم كان قد تحول إلى الإسلام في الجيل التالي[٥].

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ظهر أن روح نشر الدعوة الإسلامية بين الأتراك قد اعتراها الضعف والفتور. أما السنين الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد فقد شهدت تجدد الاهتمام بالدعاية الإسلامية، وأخذت الصحف التركية في تسجيل أمثلة من التحول إلى الإسلام. وكان من أجدرهم بالذكر عدد يبلغ ثمانية عشر أمير تقريبًا من أسرة شهاب المالكة في جبل لبنان، وكانت تدين بالمسيحية مدة قرن تقريبًا؛

---

(١) **Von den Driesch, p. 250.**

(٢) **Id. P. 131-2.**

(٣) **Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xi.**

(٤) **Hertzberg, p. 621.**

(٥) «وبموت الشيوخ المسنين، كان يدخل الشبان في الإسلام غالبًا، حتى إنك الآن (١٦٥٥) لا تكاد تلقي باثنين من مسيحيي الأرمن في كل تلك السهول الخصبة، التي كان آباؤهم قد أرسلوا إليها لتمسيدها». **Tavernier (1), p. 16.**

وقد قيل إنهم ادعوا النسب إلى قريش، وقد بذل الأتراك كل جهد في سبيل إعادتهم إلى حظيرة الإسلام. وعين الذين أسلموا منهم في مناصب تدر عليهم ربحًا في الخدمة التركية المدنية[1].

وفي الصفحات التالية نرى أن نذكر أخبارًا أكثر تفصيلًا وتخصصًا تتعلق بانتشار الإسلام بين أهالي ألبانيا والصرب والبوسنة وإقريطش من المسيحيين، إذ أن تاريخ كل بلد من هذه البلاد، بعد أن فتحها الأتراك، يمثل بعض المظاهر الخاصة التي تسترعي الانتباه في تاريخ الدعوة الإسلامية.

يسكن الألبانيون، عدا بعض من استوطن منهم في اليونان[2]، تلك المنطقة الجبلية التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي من الجبل الأسود إلى خليج أرتا **Arta**. وهم يكونون عنصرًا من أقدم العناصر وأنقاها في أوربا، ويقال إنهم ينتمون إلى الفرع البلاسجي من الكتلة الآرية.

وقد بدأ غزو الأتراك بلادهم سنة ١٣٨٧م، ولكن لم يكن بد من أن تنسحب الجيوش التركية سريعًا، واعترف بنفوذ السلطان للمرة الأولى في سنة ١٤٢٣. واستردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة جورج كاستريوتا **G. Kastriota** الذي اشتهر باسمه الإسلامي إسكندر بك أو سكندر بك. وقد أثبتت الأبحاث ميوله إلى الأتراك، وشب بينهم على الإسلام، وحظي بعطف السلطان. والحقيقة أنه قضى أيام شبابه في بلاده الجبلية، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذي أحرز فيه النصر عليهم في سنة ١٤٤٤؛ وظل أكثر من عشرين عامًا يقاوم قواتهم الغازية مقاومة عنيفة؛ ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا. وسقطت كرويا **Kruya** (آق حصار)، حاضرة أسرة كاستريوت في أيديهم بعد أحد عشر عامًا، ومنذ ذلك الوقت، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة في كافة أنحاء المملكة، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع، وأن خضوع البلاد لم يكن تامًا بحال. وظلت بعض الموانئ البحرية تقاوم مدة أطول؛ وسقطت

---

(١) **H. H. Jessup: Fifty-three in Syria, vol. ii. p. 658. (New York. 1910).**

(٢) ولمعرفة أسماء هؤلاء انظر: **Finlay, vol. vi, pp. 28-9**

مدينة دوراتسو Durazza في سنة ١٥٠٥م، على حين لم تسلم مدينة انتيفاري Antivari الواقعة في أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى ١٥٧١م. وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها القديمة ونظام حكومتها وأن تكفل لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم المسيحي، وألا يتعرض أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم، وأن يعاد بناؤها إذا تطرق إليها البلى، وأن يحتفظ المواطنون بأملاكهم كلها، المنقول منها والعقار، وألا يثقل كاهلهم بأداء أية ضرائب إضافية.

ويظهر أن الألبانيين احتفظوا دائمًا في ظل الحكم التركي بنوع من الحكومة شبه الاستقلالية، وظلت القبائل والعشائر المختلفة يتمتعون بنفس الاستقلال الذي كانوا يتمتعون به قبل الفتح. وعلى الرغم من وجود ولاة لسلاطين الترك، كانوا لا يطيقون تدخل الموظفين من الترك في إدارتهم الداخلية. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الحكومة التركية لم يكن في وسعها قط أن تعين أو تقرّ أي حاكم إقليمي لا يكون من أهالي ألبانيا، ولا أن يدعم نفوذه بأسلحته وسياسته وعلاقته بالناس[١]. فقد بلغ اعتزازهم بعنصرهم حد كبيرا، وإذا سئل الألباني، حتى الوقت الحاضر، عن نفسه أجاب بأنه سكبتار[٢]، قبل أن يجيب بأنه مسيحي أو مسلم، وهذا شاهد قوي جدًا يدل على أن الشعور القومي قد محا التفرقة الشديدة بين هاتين الديانتين التي تدخلت تدخلا عنيفًا في سائر بلاد الدولة العثمانية. فالألبانيون، النصارى والمسلمون على سواء، يتكلمون لغة واحدة، ويؤثرون تقاليد واحدة، ويراعون طباعًا وعادات واحدة؛ وإن اعتدادهم بقوميتهم المشتركة لرابط أقوى من أن يسمح لخلافات العقيدة الدينية بأن تقسم الأمة شيعًا متفرقة على هذا الأساس[٣].

ولقد خدموا جنبًا إلى جنب في الجيوش غير النظامية التي سرعان ما أصبحت بعد

---

(١) Leake, p. 250.

(٢) وهو الاسم الذي يطلقه الألبانيون دائمًا على أنفسهم ومعناه سكان الصخور.

(٣) ويقول واحد منهم، وهو مسيحي ألباني، متحدثًا عن العداوة القائمة بين المسيحيين والمسلمين في بلغاريا: «أما ألبانيا فقد كان موقفها مختلفًا عن ذلك تمام الاختلاف؛ إذ أن المسلمين الألبانيين، كالمسيحيين، يتكلمون لغة واحدة، ولهم عادات وأخلاق واحدة، ويسيرون على عرف واحد، وليس بين المسلمين والمسيحيين كراهية مطلقًا؛ إذ لم يكن بينهم عداوة أجيال. ولم يكن اختلاف الدين باعثا بحال على الانفصال الحقيق. وكانوا يعيشون، عدا حالات عدة، على قدم المساواة، ينعمون بحقوق واحدة ويؤدون واجبات متماثلة. (Wassas Effendil: Albanien und die Albanesen. P. 59. Berlin, 1879)

الفتح التركي الدعامة الأساسية للحكومة في كل إدارتها الداخلية، ووجدت كلتا الطائفتين استعدادا واحدًا في خدمة الباشوات المحليين، لأنهم كانوا يعدون أشجع الجنود في الدولة. فقد خدم الألبانيون المسيحيون في الجيش التركي في حرب القرم(١). ومع أنهم ربما كانوا أكثر هدوءًا وإلمامًا بالزراعة من مواطنيهم من المسلمين، إلا أن الفرق بين هؤلاء وأولئك ما زال يسيرًا؛ فقد كانوا يحتفظون دائمًا بأسلحتهم وصفاتهم العسكرية، وأظهروا دائمًا نفس تلك الروح الصارمة المزهوة، صعبة المراس، وعاشوا بنفس ذلك الشعور القومي العنيف، كما كان لإخوانهم الذين اعتقدوا دين النبي(٢).

وإن لتقدير هذه الحقائق أهمية في تتبع انتشار الإسلام في ألبانيا؛ إذ يظهر أنه انتشر تدريجًا وفي بطء على أيدي أهالي البلاد أنفسهم لا نتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية. وإن ما لدينا من تفصيلات عن هذه الحركة لا يغني فتيلا، فإننا لا نعرف شيئًا ذا غناء عن تاريخ ألبانيا منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى قيام علي باشا بعد ذلك بثلاثمائة سنة؛ فكان ما لدينا من معلومات عن كثرة الداخلين في الإسلام الذي كان بطيئًا، ولكنه كان مستمرًا في خلال هذه الفترة، مُستقى من التواريخ الكنسية للأبرشيات المختلفة(٣)، ومن التقريرات التي أرسلت إلى ألبانيا من وقت لآخر وإلى جماعة الدعوة إلى الدين **Congregatio de Propaganda Fide**(٤).

وغني عن البيان أن طبيعة هذه المصادر تكسب المعلومات التي استقيت منها طابعًا من النقص، ولا سيما فيما يتعلق بالبواعث التي دفعتهم إلى الدخول في الإسلام. ذلك أنه لم يكن من المعقول تقريبًا أن رجل الكنيسة الذي يرجع إلى تلك العصور كان يسلم

---

(١) **Finlay, vol. v. p. 46.**

(٢) **Clark. Pp. 175-7.** والمرديون **Mirdites**، وهم من الرومان الكاثوليك المعروفين بتعصبهم الشديد (في أبرشية أليسيو **Alessio**)، لن يقبلوا مسلمًا أن يعيش في جبالهم، ولا فردًا من قبلتهم أن يترك دينه؛ ولو حاول أي مردي أن يفعل شيئًا من ذلك لقضي عليه بالقتل من غير شك، إلا إذا أفلح في الهرب من ألمانيا. **(Hecquard: Histoire de la Haute Albanie, p. 224).**

(٣) **Published in Farlati's Illyricum Sacrum.**

(٤) **Alessandro Comuleo, 1593. Bizzi, 1640. Marco Crisio, 1651. Fra Bonaventura di S. Antonio, 1652. Zmaievich. 1703.**

حتى باحتمال أي دخول في الإسلام من طريق الإقناع الصحيح، فضلًا عن كونه يعبر بصراحة عن رأي كهذا فيما يكتبه إلى رؤسائه.

وفي خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم، على الرغم من أن تيار الدخول في الإسلام كان قد بدأ منذ حين. وفي سنة ١٦١٠ كان عدد الأهالي المسيحيين يفوق عدد المسلمين بنسبة ١٠ إلى ١[١]. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جدًا من المسلمين[٢]، يظهر أن حالات الدخول في الإسلام كانت أكثر منها في المدن الكبيرة. ففي مدينة أنتيفاري مثلًا، بينما آثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة، تحول السواد الأعظم من هؤلاء الذين بقوا في هذه البلاد إلى الإسلام تدريجيًا، سواء الشريف منهم والوضيع، حتى أخذ يتناقص عدد الأهالي المسيحيين يومًا بعد يوم[٣].

وبازدياد عدد الداخلين في الإسلام حُوّلت الكنائس إلى مساجد، وهذا التصرف مع أنه يتعارض مع شروط الصلح يبرره – فيما يظهر – التغيير الذي طرأ على عقيدة الشعب[٤].

وفي ١٦١٠ لم يكن هنالك إلا كنيستان تعليميتان قد بقيتا في أيدي النصارى من اللاتين. ولكن يظهر أنهما كانتا بحيث تسدان حاجات الجماعة[٥]؛ ويمكن أن ندرك مدى ما بلغه هذا الأمر على وجه التقريب من هذه الكلمات التي جاءت على لسان ماركو

---

(١) Rizzi, fol. 60, b.

(٢) Bizzi, fol. a. 35. a.

(٣) Farlati, vol. vii. pp. 104, 107.

(٤) وكذلك شكا بعضهم من أن قصر رئيس الأساقفة قد امتلكه المسلمون، إلا أنه كان قد ترك خاليًا ثماني سنين، إذ أن رئيس الأساقفة، أمبروسيوس، الذي نبغ بين سنتي ١٥٧٩– ١٥٩٨، وجد من الصواب أن يغادر البلاد بعد أن هاجم الإسلام «بحماسة تفوق حد الحذر، وقذف في حق مُحَمَّد، وسب مبادئه الشيطانية». (Farlati, vol. vii. P. 107.)

(٥) Bizzi, fol. 9. حيث يقول: «قمت بالقداس في ذلك الصباح لكل الطائفة المسيحية اللاتينية تقريبًا». وإذا وازنا ذلك بالإحصاء الذي أورده زمايفتش (fol. 227.) فإني أستطيع أن أجرؤ على الظن بأن الجماعة اللاتينية المسيحية بلغت في ذلك الحين ما يزيد على ألف نسمة.

بتزي إذ يقول: «هناك نحو ٦٠٠ منزل يقطنها المسيحيون والمسلمون دون تمييز، سواء منهم اللاتينيون والمنشقون (أي عن الكنية الإغريقية الأرثوذكسية)، وأن عدد المسلمين يتجاوز عدد المسيحيين قليلًا، كما أن عدد اللاتين يتجاوز عدد المنشقين».

وفيما وصل إلينا من الأخبار التي تتعلق بالصلات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين، نجد بعض ما يرشدنا إلى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجيًا بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين، الأمر الذي يرجع إلى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية.

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين، ولدى النساء المسيحيات ألا يدين أية معارضة في أمثال هذه العلاقات(١). وتربى الأطفال من الذكور الذين نشأوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن(٢). ولم يكن لمثل هذا السماح تأثير من الوجهة العملية من جانب رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرابين المقدسة(٣). وكان من أثر ذلك (على الرغم من أن خوريي الكنائس طالما كانوا يغضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيرًا من أولاء الأمهات قد دخلن في دين أزواجهن. على أنهن تمسكن بالعادة التقليدية الخاصة بطقوس العماد التي كان يظن أنها دواء واق من البرص والسحرة والذئاب(٤).

وقد أبدت القساوسة استعدادًا لإجراء هذا التقليد لأية امرأة مسلمة تريد أن تعمد

---

(١) Bizzi, fol. 27, b; 38, b.

(٢) Viniero, fol. 34.؛ وكذلك جرت العادة في بعض قرى ألبانيا في عصر متأخر يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر. انظر: W. M. Leake: Travels in Northern Greece, vol. i. p. 49. (London, 1835) «وفي بعض القرى تزوج المسلمون بنساء من الإغريق، وتربى أبناؤهم تربية تركية، حتى إن لحوم الخنازير والضأن تؤكل على مائدة واحدة.

(٣) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, tom. vii. p. 158.

(٤) Bizzi, fol. 10, b. Veniero, fol. 34.

أولادها[١]. كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين[٢] بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى؛ فمثلًا يقول ماركو بتزي إنه في يوم عيد القديس إيليا (الذي يظهر أن الألبانيين كانوا يقدسونه بنوع خاص) وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى[٣]. وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعزمون مريم العذراء والقديسين المسيحيين ويحجون إلى مقابرهم؛ كما أن المسيحيين – من جهة أخرى – يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالنذور[٤]. وفي مدينة كاليفاتشي **Calevacci**، حيث كان هنالك ستون أسرة مسيحية وعشر أسرات من المسلمين، ساهم أتباع النبي في إعانة كاهن أبرشية، إذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات[٥].

وفي مثل هذه الظروف لا يكاد يستولي علينا الدهش إذا علمنا أن كثيرين اعتقدوا الإسلام علانية، بينما أرضوا ضمائرهم بقولهم إنهم اعتقدوا المسيحية بقلوبهم[٦]. وقد علل ماركو بتزي مثل هذه الزلة بثلاثة أوجه: الجري وراء المنفعة الدنيوية، والرغبة في تجنب أداء الضريبة، والنقص في ذلك العدد الملحوظ من رجال الكنيسة الأذكياء الذي يشبع حاجات البلاد الروحية[٧]. وطالما يعزى الدخول في الإسلام إلى شدة وطأة الضريبة التي تفرض على المسيحيين، حتى لقد قيل إن جميع القرى ارتدت عن دينها القديم تجنبًا لأداء

---

(١) وبعد وصول ماركو بتزي إلى أنتيفاري بزمن قصير، أبدت سيدة مسلمة تنتمي إلى طبقة راقية رغبتها في تعميد طفلها على يد رئيس الأساقفة نفسه الذي يخبرنا أنها شكت شكاة مريرة إلى أحد زعماء المسيحيين في المدينة بقولها «إنني لم أجد من مكانتي ما يعينني على إسداء تلك المكرمة إليها، الشيء الذي يفعله يوميًا قساوستي عند طلب أي فرد من عامة الشعب» (**fol. 10, b.**)

(٢) وللاطلاع على أمثلة حديثة من تلك العلاقات الودية القائمة بين أتباع كل من الديانتين الذين يعيشون جنبًا إلى جنب في قرية واحدة، انظر: **Hyacinthe Hecquard: Histoire et description de la Haute Albanie (pp. 153, 162, 2CO). (Paris, 1858).**

(٣) **Bizzi, fol. 38. a.**

(٤) **Garnett, p. 267.**

(٥) **Bizzi, fol. 36. b.**

(٦) **Id. Fol. 38, b; 37, a.**

(٧) **Bizzi, fol. 38, b; 61, a; 33, b.**

الضريبة. ولما لم ترد أخبار مفصلة عن ذلك، فإن من المحال أن نحكم بما إذا كان هنالك حقًا أساس كاف للشكوى، أو إذا لم يكن هناك ما يبرر السلوك الذي سلكه المرتدون لاصطناع نوع من العذر لإخوانهم السابقين في الدين، أو أن ذلك كان في الحقيقة مبالغة من جانب رجال الكنيسة الذين خيل إليهم أن الدخول الصادق في الإسلام على أسس منطقية أمر مستحيل تمام الاستحالة.

وكانت جزية الرأس بعد ذلك بقرن (في سنة ١٧٠٣) ستة ريالات عن كل شخص من الذكور، وكانت هذه الضريبة (عدا ضريبة تسمى الشياتارتشيو **Sciataraccio** كان مقدارها ثلاثة ريالات كل عام) هي العبء الوحيد الذي فرض على المسيحيين وحدهم(١). ولا بد أن تعلق الناس بدينهم كان من الضعف والوهن بحيث انصرفوا عن دينهم لا لشيء إلا ليتخلصوا من عقوبة تافهة كهذه. وإن مجرد وجود مثل هذه الجموع الحاشدة من المسيحيين في ألبانيا في الوقت الحاضر، ليدلنا على أن العبء لم يكن من الشدة بحيث يرغمهم على الكفر دون أن تكون لهم الخيرة في شيء آخر.

ولو وصل إلينا من المعلومات ما هو أكثر من تلك الشكاوى العامة الغامضة ضد «الجور التركي»، لكان في وسعنا أن نقرر على الوجه الأمثل إلى أي حد استطاع هذا الجور أن يكون له مثل هذا التأثير الذي ينسب إليه، ولكن يظهر أن الشاهد الذي أشرنا إليه لا يكاد يدعم مثل هذه النتيجة. وكان من أثر التقليد المعيب الذي سار عليه البلاط العثماني ببيع المناصب في الولايات عن طريق المزاد بأفحش الأثمان، والشك في مدى بقاء أمثال الذين يشغلون هذه المناصب، أن لجأ هؤلاء في كثير من الأحيان إلى جمع أقصى ما يستطيعون من الأموال باشتطاطهم في جمعها بكل وسيلة. على أنه قيل إن مثل هذه الأعباء كانت شديدة الوطأة على المسلمين كما كانت على النصارى(٢). ومع ذلك كان لا يخلو في الواقع أن يجد موظف شره جائر، أن من الأيسر أن يجور على النصارى ولا يفعل ذلك بالمسلمين، ولا سيما حينما أغرى النصارى بأن يتصلوا بالبنادقة وبعض

---

(١) كان الريال البندقي في القرن الثامن عشر يساري القرش التركي. (**Businello, p. 94.**)

(٢) **Bizzi, fol. 12-13. Zmaievich, fol. 5.**

الولايات المسيحية الأخرى اتصالا ينطوي على الخيانة، كما أثيرت حولهم الشكوك في شق عصا الطاعة واللجوء إلى الثورة.

ومهما يكن من شيء، فمن الممكن أن يوجد قليل من الشك فيما أحدثه نشاط الإسلام الحماسي وحياته الفتية من تأثير، في مقابل ما اتصف به رجال الكنيسة المسيحية من جمود وجهل. ولو رزق الإسلام في ألبانيا أئمة كثيرين من أمثال الملا الذي أثنى ماركوبتزي على إخلاصه ولطفه وتواده، وكان قد تعود أن يناقشه في المسائل الدينية، لكان من المحتمل أن يشق الإسلام طريقه خيرًا مما كان[1]. والظاهر أن الأمية كانت متفشية في السواد الأعظم من رجال الدين المسيحي، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتسب برغم إلمامه الضعيف بالقراءة، وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب[2].

وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القداس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية، كان هنالك عدد قليل جدًا يستطيع أي يدرك شيئًا منها، كما كانوا على جهل بأية لغة لغتهم الأصلية، وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم[3] إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر. وقد حمل ماركوبتزي أسقفية البلاد القاصرة مسئولية هذه المساوئ من حيث قلة عدد رجال الكنيسة، وجهلهم بمهنتهم المقدسة، ومن حيث هذا العدد العظيم من المسيحيين الذين أدركتهم الشيخوخة، بل أدركهم الموت، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسي، والذين ارتدوا عن دينهم في كل مكان تقريبًا[4]. وقد تنبأ بزوال المسيحية العاجل في هذه البلاد إذا لم تعالج هذه المساوئ[5]، كذلك اتهم كثير من القسس باتخاذ

---

(١) Bizzi, fol. 10-11.

(٢) Id, fol. 31. b.

(٣) Bizzi, fol. 60, b.

(٤) Id. Fol. 33, b. «ويرجع هذا إلى العدد القليل من القساوسة في تلك الأنحاء ومعرفتهم الناقصة بتلك المهنة، وعدد المسيحيين الكبير الذين يشيخون. بل يموتون، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسي، ويرتدون عن دينهم في كل مكان تقريبًا».

(٥) «وإذا لم تتلقى ألبانيا معونة أكبر، فسوف تسوء حالة السواد الأعظم من المسيحيين في مدى سنوات قليلة، لقلة عدد الأساقفة والقساوسة الذين هم على جانب من الفهم.» (Id. Fol. 61, a)

الجواري وشرب الخمر[١].

ومما يلاحظ في هذا المقام، أن القسيسين الألبانيين لم يكونوا حفظة على المطامع القومية والمثل العليا، كما كان رجال الكنيسة الأرثوذكسية في سائر ولايات الدولة العثمانية، هؤلاء الذين برغم جهلهم أبقوا بين شعبهم على تقديس الديانة المسيحية التي كونت نواة الحياة القومية عند اليونان[٢]. وعلى خلاف ذلك اعتز الألبانيون بشعور قومي كان منفصلًا تمام الانفصال عن العقيدة الدينية، كما اعتبروا بروح صادقة، أن الأتراك – كما كانوا من قبل – سادة البلاد وأن من الواجب أن يطاعوا مهما فرضوا من أوامر[٣].

وهناك قصة عجيبة تتعلق بالتحول إلى الإسلام، قيل إنها حدثت نتيجة لفقدان العلاقات الودية بين أحد القساوسة المسيحيين وشعبه، وقد جرت هذه القصة على الوجه التالي: «منذ أعوام كثيرة، عندما كان جميع البلاد يدين بالمسيحية، تمثلت هنالك في مدينة أسكدار صورة جميلة لمريم العذراء التي كان يهرع إلى معبدها كل عام آلاف من الناس من كافة أنحاء المملكة لتقديم هداياهم، وتأدية شعائرهم، والاستشفاء من عللهم. بيد أنه حدث لسبب من الأسباب أن وقع شقاق بين القسيس وقومه. وفي ذات يوم وفد قوم على الكنيسة في جموع زاخرة أنهم إذا لم يخضع القسيس لأمرهم فسوف ينبذون دين المسيح ويدخلون في دين مُحَمّد، ولما ظل القسيس متشبثًا برأيه، سواء أكان مصيبًا أم مخطئًا، نزع قومه مسابحهم وصلبانهم في أعناقهم وسحقوها بأقدامهم، ولما ذهبوا إلى أقرب مسجد، أدخلهم الملا في حظيرة المؤمنين الصادقين[٤]».

وكان من جراء الإهمال والجمود اللذين ظهر بهما رجال الكنيسة أن أتيح لكثير من

---

(١) Id. Fol. 36, a. Id. fol. 64, b.

(٢) Finlay, vol. v. pp. 153-4. Clark, p. 290.

(٣) «وهؤلاء التاعسون اعتقدوا اعتقادًا راسخًا بأنهم لم يرتكبوا خطيئة في عقد مثل ذلك الزواج (كتزويج البنات المسيحيات من المسلمين)، ونظرًا لأن الترك هم سادة البلاد، فلا يمكن، ولا يجوز أن نعصى لهم أمرًا عندما يأمرون بأي شيء». (Bizzi, fol. 38, b.)

(٤) Garnett, p. 268.

المساوئ والشذوذ أن تزحف إلى المجتمع المسيحي، ومن ذلك ما يسمونه إجراء عقود الزواج بدون تصديق الكنيسة أو عمل أي احتفال ديني، وهو ما نجد له مقاربًا في الشريعة الإسلامية التي تجعل الزواج عقدًا مدنيًا. ولكي يعالجوا هذه السيئة لم يكن بد من أن يحرموا الزواج والزوجة من دخول الكنيسة حتى يمتثلا أمر القانون الكنسي ويذهبها لإقامة شعائرهم بطريقة منتظمة[١].

وفي خلال القرن السابع عشر كانت الأحوال الاجتماعية، وسائر العوامل التي ذكرناها من قبل، قد آتت ثمرتها في كثرة عظيمة، وبدأ عدد الأهالي من المسيحيين يتدهور تدهورًا سريعًا؛ ففي فترة قصيرة تبلغ الثلاثين عامًا وتقع بين سنتي ١٦٢٠، ١٦٥٠، قيل إن حوالي ٣٠٠ ألفا من الألبانيين تحولوا إلى الإسلام[٢]. وفي سنة ١٦٢٤ لم يكن في أبرشية أنتيفاري كلها إلا ألفان من الكاثوليك، ولم يكن في المدينة نفسها إلا كنيسة واحدة. وفي نهاية هذا القرن لم تعد حتى هذه الكنيسة تستخدم في عبادة المسيحيين، إذ لم يبق فيها إلا أسرتان من الكاثوليك الرومان[٣]. وفي سنة ١٦٥١ كان السواد الأعظم من الطائفة المسيحية في كافة أنحاء البلاد بوجه عام مؤلفًا من النساء، إذ كان الذكور من الأهالي قد ارتدوا على دينهم واعتنقوا الإسلام بمثل هذه الجموع الكبيرة[٤].

وظلت الحالة في نهاية هذا القرن على سوئها؛ ولما كان الكاثوليك في ذلك الحين أقل عددًا من المسلمين أصبحت النسب بينهم كنسبة ١:٫١ تقريبًا[٥]، على حين كانوا قبل ذلك بأقل من مائة عام يفوقون المسلمين عددًا حتى أصبحت النسبة بينهم ١٠: ١[٦]. ونقص عدد الأهالي المسيحيين في رياسة الأسقفية في دوراتزو إلى ما يقرب من

---

(١) Bizzi, fol. 38, b; 63, a.

(٢) Kyriakos, p. 12.

(٣) Farlati, tom. Vii. Pp. 124, 141.

(٤) Marco Crisio, p. 202.

(٥) Zmaievich, fol. 227.

(٦) Bizzi, fol. 60. B.

النصف في مدى عشرين سنة[١]؛ وفي مدينة أخرى في أسقفية كرويا تحول الأهالي كافة من المسيحية إلى الإسلام في مدى ثلاثين عامًا[٢].

وبرغم الاحتياجات المتكررة والنظم التي أحدثها رؤساؤهم الروحانيون استمر خوريّو الكنائس في تشجيع ما كان يصنعه أفراد كثيرون من رعاياهم من الاعتراف الصريح بالإسلام مقترنا بالمشايعة السرية للدين المسيحي، وذلك بمنحهم إياهم سر القربان المقدس؛ وكان من أثر ذلك أن أبناء أمثال هؤلاء الأفراد الذين نشئوا نشأة إسلامية فقدوا إلى الأبد شعورهم نحو الكنيسة المسيحية[٣]. كذلك ظلت الأسر المسيحية تزوج بناتها من المسلمين، وظل خوريّو الكنائس يؤازرون مثل هذه الروابط بمنح السر المقدس أمثال أولاء النساء[٤]، برغم ما أظهر رؤساء رجال الكنيسة من سخط على أن أي تساهل من هذا القبيل[٥] على أن مثل هذا التصرف من جانب صغار رجال الكنيسة لا يكاد يؤخذ على أنه دليل على أية حماسة بالغة منهم في سبيل تزويد رعاياهم بالفائدة الروحية، بإزاء الاتهامات الموجهة إليهم، فإن معظمهم قد اتهم بأنهم خلعاء جالبون للعار، قلما ذهبوا إلى الاعتراف؛ وأدمنوا الانغماس في ملذات الشراب في بيوتهم أيام الأعياد، وباعوا أملاك الكنيسة، وطالما تغيبوا عن أبرشياتهم، فإذا أدبتهم الكنيسة نجحوا في التخلص بوضع أنفسهم تحت حماية الأتراك[٦].

أما الفرنسسكان المصلحون والأبزرفانت[٧] الذين كانوا قد أرسلوا ليمدوا الشعب بحاجاته الروحية فإنهم لم يصنعوا شيئًا إلا المنازعات ومقاضاة بعضهم بعضا؛ وقد انطوى كثير من هذه المنازعات على فضائح عامة الشعب المسيحي وإهمال الرسالة التي جاءوا

(١) Zmaievich, fol. 137.

(٢) Zmaievich, fol. 157.

(٣) Id. fol. 11, 159.

(٤) Id. fol. 13.

(٥) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, vol. vii. P. 158.

(٦) Zmaievich, fol. 13-14.

(٧) هم طائفة من رهبان الفرنسسكان انفصلوا عن طائفة أخرى من هؤلاء في القرن الخامس عشر.

من أجلها[1]. وفي منتصف القرن السابع عشر، خلت خمس أبرشيات ألبانية من اثنتي عشرة أبرشية؛ فلم يزر أسقفية بولاتي **Pullati** أحد من الأساقفة مدة ثلاثين عامًا، ولم يكن هنالك إلا قسيسان في منطقة بلغ عدد سكانها ٦٣٤٨ نفسها[2]. وفي بعض الأبرشيات الواقعة في داخلية البلاد، لم يكن هنالك قساوسة في فترة تزيد على أربعين سنة؛ ولم يكن هذا راجعًا بحال إلى ضغط «الجور التركي»؛ لأنه عندما أرسل أخيرًا أربع بعثات من الفرنسسكان قرروا أنهم استطاعوا أن يجوسوا خلال البلاد ويمارسوا مهنتهم المقدسة دون أن يعترضهم أي شيء في هذه السبيل[3].

وكان أسقف سبّا قد أقام مدة طويلة في البندقية، مما أدى إلى إلحاق خسارة فادحة بأبرشيته، وقد قيل إنه عاش هناك حياة حافلة بالرذائل، وكان قد أناب عنه قسيسًا جاهلًا كان معروفًا بخلاعته وسوء خلقه، وقد باشر هذا الرجل أعماله الدينية بين ١٢٤٠٠ نفس. ويقول الزائر الديني إنه «في خلال غياب الأسقف استهدفت الأسقفية لخطر نتيجة لما جره على نفسه من تحطيم روحه، والعمل على خراب النفوس التي تحت سلطانه الديني وخراب أملاك الكنيسة»[4]. وكان أسقف أسكدار – في نظر رجال كنيسته وقومه – رجلًا ظالماً لم يفلح في الاحتفاظ بمركزه إلا بمعونة الأتراك[5]؛ ويشكو زمايفتش **Zmaievich** من الأساقفة عامة الذين أثقلوا كاهل الأبرشيات القائمة في أسقفيتهم بضرائب إجبارية[6]. ويظهر أن السلطان كان قد منح رجال الدين المسيحي السلطة لأن يفرضوا رسومًا على رعاياهم. ومن ثم سمح لرياسة أسقفية أنتيفاري (١٥٩٩– ١٠٦٧) أن «تفرض وتتسلم» قطعتين من فئة الأسبير **Asper** من كل أسرة مسيحية، واثنتي عشرة قطعة عن الزواج الأول (وضعفي هذا المبلغ عن الزواج الثاني، وأربعة أضعافه عن الثالث)

(١) **Informatione circa la missione d'Albania, fol. 196.**

(٢) **Crisio, fol. 204.**

(٣) **Fra Bonaventura, fol. 201.**

(٤) **Marco Crisio, fol. 202, 205.**

(٥) **Id. fol. 205.**

(٦) **Zmaievich, fol. 13.**

وقطعة ذهبية من كل أبرشية في السنة. ويظهر أنه كان من اليسير الحصول على مساعدة السلطات التركية في جباية هذه الرسوم[١].

ولم يكن في كافة أنحاء ألبانيا مدرسة مسيحية واحدة[٢]، وكان القسس في جهل مطبق، أرسل بعضهم للدراسة في إيطاليا؛ ولكن ماركو كرزيو **M. Crisio** ينحي باللائمة على هذه الطريقة، لأن أمثال هؤلاء القسيسين كانوا في خطر من أن يجدوا الحياة في إيطاليا قد بلغت من المتعة بحيث كانوا يرفضون العودة إلى وطنهم. فإذا كان الكهنوت على هذا النحو من الجهل وإهمال الواجبات المقدسة، فلا عجب إذا عرفنا أن عامة الشعب كانوا لا يعرفون حتى مبادئ دينهم، وأن أضرارًا كثيرة ومفاسد جمة قد نجمت في مجتمعهم، وهي التي «عملت أقصى ما يمكن من التخريب لكرمة الرب[٣]».

وقد عاش كثير من المسيحيين أعوامًا يسرون بالنساء علانية مع استمرارهم في منح الأسرار[٤]، على حين كان لآخرين منهم عدد من الزوجات[٥]. وفي هذه العادة الأخيرة نلاحظ تشابها بين عادات الطائفتين – النصارى والمسلمين – وهو تشابه يزداد وضوحًا باعتراف رجال الكنيسة بكفالة المسلمين في تعميد أطفال المسيحيين، على حين ظل القسس يجيزون التقليد القديم الخاص بتعميد أطفال المسلمين[٦].

ولما كانت الكنيسة المسيحية في ألبانيا في النصف الأخير من القرن السابع عشر على الحالة التي وصفناها، كان أتفه البواعث يكفي لإحداث ارتداد واسع النطاق. وإن العقاب الذي وقع على الكاثوليك الثائرين في النصف الأخير من هذا القرن كان عاملًا حاسمًا أكثر مما ينبغي لإحداث ميول كانت تجذبهم نحو الإسلام وتجعل جموعًا كبيرة منهم

---

(١) **Farlati, tom. Vii. P. 109. Bizzi, fol. 19, b.**

(٢) **Marco Crisio, fol. 205.**

(٣) **Zmaievich, fol. 11.**

(٤) **Id, fol. 32.**

(٥) **Crisio, fol. 204.**

(٦) **Zmaievich, fol. 11. Farlati, vol. vii. P. 151.**

يخرجون على الكنيسة المسيحية. ويظهر أن الحركة الثورية التي أشرنا إليها والتي أثارها جورج التاسع والثلاثون من رؤساء أساقفة أنتيفاري (١٦٣٥- ١٦٤٤) الذي حاول عن طريق أساقفة دوراتسو وشقودرة وأليسيو **Alessio** أن يحرض زعماء جماعة المسيحيين على التآمر على الحكم التركي وتسليم زمام البلاد إلى القوة المسيحية المجاورة، وهي جمهورية البندقية. ولما كانت البندقية في عهده في سلم مع الأتراك، لم تحن فرصة مناسبة لتدبير هذه المؤامرة، إلا أنه في سنة ١٦٤٥ نشبت الحرب بين تركيا وهذه الجمهورية، وقام البنادقة بمحاولة خائبة للاستيلاء على مدينة أنتيفاري التي كانت في حوزتهم قبل الفتح العثماني بأكثر من ثلاثة قرون (١٢٦٢- ١٥٧١).

أما الكاثوليك الألبانيون الذين تحيزوا للعدو وأعانوه سرًا، فقد عوقبوا عقابًا شديدًا وحرموا امتيازاتهم، على حين كوفئ المسيحيون اليونان (الذين كان لديهم كل ما يثير مخاوفهم من أن يعود حكم البنادقة فظلوا موالين للحكومة التركية) مكافأة سخية، ونوهوا باسمهم باعتبارهم مخلصين لبلادهم. وأصبح كثير من الكاثوليك، إما مسلمين أو منحازين إلى الكنيسة الرومانية، وهذه الحقيقة الأخيرة ذات مغزى كبير من حيث إنها تدلنا على أنه لم يكن ثمة اضطهاد للمسيحيين كهذا، كما لم تكن هنالك أية محاولة لحملهم على قبول الإسلام.

وقد فعل الكاثوليك الذين دخلوا في الإسلام هذا التصرف ليتجنبوا حرج مركزهم بعد أن أخفقت مؤامراتهم، واستطاعوا أن يحققوا نفس الغرض وأن يبقوا في الوقت نفسه على دينهم المسيحي بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية التي اعترفت بها الحكومة التركية رسميًا، بل كانت تلقى كذلك رعاية سامية في أنتيفاري في ذلك الحين، حتى إن هؤلاء الذين تهاونوا في ذلك العمل لم يكن تعلقهم بالدين المسيحي إلا يسيرًا جدًا. وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على كثرة حالات الدخول في الإسلام في السنين المتعاقبة، فيعزو زمايفتش دخولهم في الإسلام في بعض الحالات إلى الرغبة في تجنب أداء الجزية. ولكن ليس من المعقول، كما يتضح ذلك مما ذكرناه، أن هذا السبب كان هو الباعث الوحيد القاطع.

في سنة ١٦٤٩ اندلعت ثورة أخرى أكثر تفاقمًا، وكان يوسف ماريه بونالدو رئيس أساقفة أنتيفاري (١٦٤٦- ١٦٥٤) هو المحرض الأول على الحركة. وتآمر القواد من أهالي مدن أنتيفاري وشقودرة ومدن أخرى على أن يفتحوا أبوابهم لجيوش جمهورية البندقية. ولكن هذه المؤامرة أخفقت كذلك، وقمعت الجيوش التركية هذه الثورة بقوة وعنف، وساعدهم على ذلك الخلافات التي قامت بين المسيحيين أنفسهم. وأبعد كثيرون من الألبانيين الذين كان يخشى تأثيرهم، من بلادهم إلى داخل الممتلكات التركية؛ وعبرت قوة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجلا إلى الحدود، ودخلت أراضي البندقية؛ أما البقية الباقية منهم فقد أرهبوا بإنشاء الحصون وتسيير الجنود في المقاطعات المتمردة، على حين فرضت مغارم فادحة على المتذمرين[١]. ولم يتخذ الكتاب المسيحيون الذين شكوا لسوء الحظ من «الضرائب والمضايقات المجحفة التي كان يضيّق بها الأتراك على الألبانيين حتى يدخلوا في الإسلام[٢]»، إلا أساليب عامة، ولم يمدونا بتفاصيل تمكننا من الحكم على ما إذا كان مثل هذه الشكاوى مبررًا بالوقائع الصحيحة.

ويمهد زمايفتش لما ذكره من ارتداد ألفي نفس عن دينهم بتعديد الضرائب وسائر الأعباء التي كان على المسيحيين أن يتحملوها، إلا أنه يقول إن كل هذه الأمور كان يشترك فيها المسلمون كذلك، ما عدا جزية الرأس التي كانت تبلغ ستة ريالات في السنة لكل فرد من الذكور، وما عدا ضريبة أخرى تسمى شياتارتشيو Sciatraccio وكانت تبلغ ثلاثة ريالات في السنة[٣]. وختم بقوله: «ولما كانت هذه الضرائب طعنة في أوهى جوانب الأمة أعني الفائدة المادية، التي تقدرها وتميل إليها ميلًا فذا بالطبيعة أو بالضرورة، فقد قدمت سببًا وجيهًا لإظهار اللوعة والأسى على فقد نحو من ألفي نفس ارتدوا عن دينهم الصحيح حتى لا يذعنوا للجزية[٤]». ولا شيء فيما ذكره في تقريره يدلنا على أن

---

(١) Farlati, vol. vii. Pp. 126-32. Zmaievich, fol. 4-5, fol. 20.

(٢) «أخذ عدد عظيم في أن يترك تدريجًا المسيحية ليعفي من أداء الضرائب وسائر الإتاوات المجحفة».
(Farlati, tom. Vii. P. 311.)

(٣) Zmaievich, fol. 5.

(٤) Id. fol. 5.

الضرائب التي لم يكن بد من أن يؤديها الكاثوليك كانت عبئًا لا يحتمل، بلغ من شدة وطأته أنه أجبرهم على ترك عقيدتهم. وعلى الرغم من أنه نسب كثيرًا من حالات التحول للإسلام إلى الرغبة في التخلص من الجزية، إلا أنه يقول بوضوح إن هذه الردة عن الدين المسيحي ترجع في أساسها إلى الجهل المطبق الذي ظهر به رجال الكنيسة[١]، كما ترجع إلى حد كبير إلى ما قاموا به من منح هؤلاء الذين كانوا يجهرون بالإسلام، ويظلون مشايعين سرًا للعقيدة المسيحية[٢] أسرار الكنيسة المقدسة.

ويقول في موضع آخر حين كان يتحدث عن رجال الكنيسة الذين لم يكونوا لائقين للقيام بمنصب خوريين للكنائس، وعن مباشرتهم منح الجاحدين بالدين والمسيحيين المتسترين أسرار الكنيسة: «هذان هما علة وجه التحديد الدافعان اللذان نجمت عنهما كل الخسائر التي عانتها الكنيسة المسيحية في ألبانيا[٣]».

وثمة قليلة جدًا من الشك في أن الارتداد عن المسيحية على هذا النحو الواسع النطاق في ذلك الحين كان نتيجة لسلسلة طويلة من المؤثرات التي تشبه تلك التي عرضنا لذكرها في الصفحات السابقة، وأن التخلص من أداء الجزية كان آخر حلقة من هذه السلسلة.

أما الجهود النشيطة الفعالة التي قام بها المسلمون أنفسهم ليضموا المسيحيين إلى حظيرة الإسلام، فليس من اليسير أن نتوقع معرفة شيء منها من تقرير أي زائر ديني، إلا أننا إشارة إلى إحدى المقاطعات التي كان سكانها قد اقتبسوا بمعاشرتهم للترك «رذائل هؤلاء الكفار»، وأن أحد الأسباب الرئيسية لتخليهم عن العقيدة المسيحية إنما كان تعاقدهم على الزواج من النساء التركيات[٤]. وليس من شك في أنه كان ثمة مؤثرات إسلامية قوية فعالة، كما كانت الحال في أبرشتيى بشاشيا **Biscascia**، وباسيا **Basia** اللتين

---

(١) **Zmaievich, vol. 15, 197.**

(٢) **Id. fol. 11.**

(٣) **Id. fol. 137.**

(٤) **Id. fol. 149.**

تعرض مجموع أهليهما الذين يبلغ عددهم نحو ألف شخص «لخطر ظاهر من الارتداد عن دينهم بسبب الحاجة إلى راع للكنيسة»، وطالما «غُرر بهم للخروج عن دينهم، وأصبحوا في حاجة إلى رعاة للكنيسة، عقلاء متحمسين، يشجعونهم في دينهم[1]».

وتكلم زمايفتش عن إحدى الأسر المسيحية العريقة النبيلة في ضواحي أنتيفاري التي كانت تتمثل في ذلك الحين في أخوين كان أكبرهما قد «راوده» المسلمون البارزون في ناحيته على ترك دينه، وكان بينه وبينهم صلة وثيقة؛ ورغب الأصغر في دراسة تهيؤه لمنصب الكهنوت الذي «يمكنه من تقديم مساعدة كبيرة للكنيسة المسيحية عن طريق التقدير السامي الذي كان يظهره الأتراك لأسرته التي كانت برغم رقة حالها تلقى احترامًا من جميع الناس»[2]. وهذا في الواقع تفسير آخر للحقيقة القائلة بأن المسلمين لم يسيئوا معاملة المسيحيين في شيء مطلقًا، إلا إذا ظهروا بمظهر الساخطين على الحالة السياسية. فإن زمايفتش، الذي كان هو نفسه ألبانيا واتخذ مقامه في أبرشيته بدلًا من انتقاله إلى أراضي البندقية، كما فعل فيما يظهر كثير من رؤساء أساقفة أنتيفاري[3]، كان قد قوبل «بحفاوة بالغة» «وملاطفة رائعة» من عامة موظفي الأتراك، بل من سمو باشا ألبانيا نفسه الذي منحه مكانة سامية في ديوانه، وكان دائمًا يصحبه إلى الباب عند انصرافه ويستقبله عند الباب لدى وصوله[4].

هذا «المتبربر» الذي «دلّ على أنه أكثر شبهًا بمسيحي متدفق الإخلاص منه بتركي»، قد قدم أدلة مادية على أنه يضمر شعورًا طيبًا نحو المسيحيين بإعفائهم – حين طلب رئيس الأساقفة منه ذلك – من الجزية المستحقة للعام المقبل من أربع مدن مختلفة[5]. وإذا كان أحد من رجال الكنيسة قد عومل من جانب الأتراك معاملة سيئة،

---

(1) Id. fol. 143-4.

(2) Zmaievich, fol. 22.

(3) Farlati, tom. Vii. P. 141.

(4) Zmaievich, fol. 7. 17.

(5) Id. fol. 9.

فيظهر أن ذلك كان يرجع بوجه عام إلى اتهامهم بمراسلة أعداء الأتراك مراسلة تنطوي على خيانة. كذلك يظهر أن زيارات رجال الدين المسيحي إلى إيطاليا قد أثارت بحق وفي كثير من الحالات أمثال هذه الريب. وبغير ذلك يظهر أنه لم يكن لدى رجال الكنيسة سبب للشكوى من المعاملة التي لاقوها من المسلمين. بل إن زمايفتش ليتحدث عن خوري كنيسة بأنه كان «محبوبًا جدًا من رؤساء الأتراك»[1]. وليس من شك في أنه كان في ألبانيا نظائر لحالة قسيس في أبرشية تريبنجة **Trebinje** في هرتسيجوفينا **Herzegovina** اتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر، بسبب علاقاته الودية مع المسلمين، بأنه عقد النية على الدخول في الإسلام. وكان من أثر ذلك أن بعث به أسقفه إلى رومة تحت حراسة آمنة[2].

ويظهر أنه ليس في الفترات المتعاقبة من تاريخ ألبانيا ما يثبت حدوث ارتداد عن المسيحية واسع النطاق كالذي حدث في القرن السابع عشر؛ ولكن كان هنالك حالات عرضية من الدخول في الإسلام حتى عصور حديثة. وفي جنوب ألبانيا في بلاد التوسك **Tosks** بلغ من كثرة عدد الأهالي المسلمين أن أصبح المسيحيون في حالة سيئة؛ ويروى عن الكرمورتادين **Karamurtads**، وهم أهالي ست وثلاثين قرية بجوار بوجونياني **Pogoniani**، أنهم كانوا حتى نهاية القرن الثامن عشر يدينون بالمسيحية. ولكن لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن سد الهجمات المتوالية التي شنها عليهم جيرانهم المسلمون من أهالي ليسكوفيكي **Leskoviki**، اجتمعوا في كنيسة وابتهلوا إلى القديسين أن يصنعوا معجزة لمصلحتهم، وأقسموا أن يصوموا حتى عيد الفصح انتظارًا للمعونة الإلهية؛ ولكن عيد الفصح أقبل عليهم ولم تُصنع المعجزة، ولهذا دخل الأهلون كافة في الإسلام؛ وسرعان ما حصلوا بعد على الأسلحة التي احتاجوا إليها وذبحوا أعداءهم القدامى في ليسكوفيكي واستولوا على أراضيهم[3].

---

(1) **Id, fol. 141.**

(2) **Farlati, vol. vi. P. 317.**

(3) **Eliot, p. 401.**

ولم يكن يسمح البتة للطائفة الدينية في ألبانيا أن تقف في طريق نزاع قبلي، ولم يكد يأتي القرن التاسع عشر حتى غيرت القبائل والقرى الألبانية دينها لأسباب تافهة جدًا؛ فيقال إن فريقا من إحدى القبائل المسيحية دخلوا في الإسلام لأن قسيسهم الذي وكل إليه العمل في قرى كثيرة وزارهم أولًا، قد أصر على أن يقول القداس في ساعة مبكرة غير مناسبة[1]. وقد قيل إن المسلمين في ألبانيا في الوقت الحاضر يبلغ عددهم حوالي المليون، وأن المسيحيين نحو ٤٨٠ ألفا، ولكن ضبط هذه الأرقام يحتاج إلى تحقيق. والمرديون كلهم نصارى، خضعوا للسلطان على شرط ألا يسمح لمسلم أن يستقر في أراضيهم، ولكن أنصار كلتا العقيدتين المتنافستين قد وجدوا في كل القبائل الأخرى تقريبًا. وقد قيل إن جميع أهالي ألبانيا الوسطى مسلمون تقريبًا، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين في المائة من أهالي ألبانيا الشمالية. ويحتفظ الأهالي المسيحيون بأكبر نسبة في ألبانيا الجنوبية ولا سيما في المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان.

كانت مملكة الصرب أول الأمر تؤدي الجزية للعثمانيين في سنة ١٣٧٥م، وفقدت استقلالها بعد هزيمة منكرة في كوسوفر **Kossovo** (١٣٨٩)، حيث قيل ملك الصرب والسلطان التركي كلاهما في ميدان القتال. ودخل خليفتا الملكين المقتولين في تحالف ودي، فاعترف ستيفن الأمير الصربي الشاب بسيادة تركيا، وزوج أخته من بايزيد السلطان الجديد، وعقد معه تحالفًا أخويًا.

وفي موقعة نيكوبوليس **Nikopolis** (١٣٩٤) التي ضمنت للأتراك امتلاك كافة أرجاء جزيرة البلقان ما عدا المقاطعة التي تحيط بالقسطنطينية، وحوّل الاتفاق العربي مصير الموقعة المتقلب فوهب النصر للأتراك. وفي ساحة أنقرة (١٤٠٢)، عندما سحقت القوة التركية، وأخذ تيمور بايزيد نفسه أسيرًا، كان ستيفن يشهد المعركة بجيوشه الصربية، فحارب بشجاعة من أجل زوج أخته، وبدلًا من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصًا لعهده، ووقف إلى جانب أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم. ثم تمتعت الصرب

---

(1) **Id, p. 392.**

بشبه استقلال في عهد جورج برانكوفتش G. Brankovich خليفة استيفن، ولكنه عندما رفع لواء الثورة سنة ١٤٣٨ غلب الأتراك على المدينة مرة أخرى؛ وحينئذ لم يكن بد من أن تعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن هزيمة جون هنيادي J. Hunyady سنة ١٤٤٤ قد حملتها على أداء الجزية مرة أخرى، وانتهى أمرها أن صارت إيالة تركية في سنة ١٤٥٩.

ولا يبعد أن يكون أهل الصرب الذين اعتقدوا الإسلام بعد موقعة كوفو كانوا على علم بمصير الطائفة المسلمة القليلة العدد التي كانت قد انقرضت من بلاد المجر قبل ذلك بنحو قرن؛ ولذلك آثروا سيادة الأتراك على سيادة المجريين. ويورد ياقوت الوصف التالي لاجتماعه حول سنة ١٢٢٨ ببعض أفراد هذه الجماعة من أتباع النبي في أوربا الوسطى، وهو يعزو إسلامهم إلى هؤلاء المسلمين الذين كانوا قد استوطنوا بين ظهرانيهم؛ قال ياقوت: «وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية (الباشكير)، شقر الشعور والوجوه جدًا، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة ﷺ، فسألت رجلاً منهم استعقلتُه عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الإفرن يقال لهم الهُنكر (الهنغاريوز = المجريون). نحن مسلمون، رعية لملكهم، في طرف بلاه نحو ثلاثين قرية، كل واحدة تكاد أن تكون بسُليدة. إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً، خوفاً من أن نعصى عليه. ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد البابا يعني رومية (والبابا رئيس الإفرنج وهو عندهم نائب المسيح، أمير المؤمنين عند المسلمين ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم)، وقال: وفي غربينا الأندلس، وفي شرقينا بلاد الروم، قسطنطينية وأعمالها، قال: ولساننا لسان الإفرنج، وزينا زيهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفة، لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام.

فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر، فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل نفر من المسلمين من بلاد بلغار، وسكنوا بيننا، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال، وأرشدوا إلى الصواب من دين

الإسلام، فهدانا الله، والحمد لله؛ فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدرنا للإيمان. ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم»[١]. وظل الإسلام قائماً بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ حين أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد، أن يعتقدوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد[٢].

لهذا ربما كان يسر المسلمين من أهل الصرب أن يتخلصوا من حكم المجر، كمواطنيهم المسيحيين، لأنه لما عرض عليهم هؤلاء أن يختاروا بين الحكم الروماني الكاثوليكي في المجر وحكم الأتراك الإسلامي، دعاهم تقديس الصربيين الكنيسة الإغريقية إلى إيثار تسامح المسلمين على روح اللاتينيين التي جبلت على حب التبشير والتي لا تعرف المصالحة واللين. ومن ثم تمثل أسطورة قديمة مشاعرهم في ذلك الحين: اشتبك الأتراك والمجريون في حرب، وبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادي وسأله: «ماذا تصنع لو انتصرت؟» فأجاب: «أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية»؛ ثم بحث عن السلطان وسأله: «ماذا تصنع لديننا لو انتصرت؟» فأجاب: «أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد، وأدع مطلق الحرية لكل فرد في أن يصلي في أيهما شاء»[٣]. وقد أرغمت خيانة بعض القسوس الصربيين حامية بلغراد على التسليم للأتراك[٤]، كذلك رحب صربيو سمندرية Semendria الواقعة على نهر الدانوب بالجيوش التركية التي خلصتهم من حكم جيرانهم الكاثوليك سنة ١٦٠٠[٥].

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كوسوفو مباشرة، عندما تحول عدد كبير من إشراف الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى دين مُحَمَّد، إذ طال بهم العمر ولم

---

[١] ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص ٣٨ (طبعة القاهرة ١٣٢٣)

[٢] Geographie d' Abou' féda, traduite par M. Reinaud, tome ii. Pp. 294-5.

[٣] Enrique Dupuy de Lôme: Los Esclavos y Turqufa, pp. 17-18, (Madrid, 1877).

[٤] De la Jonquière. P. 215.

[٥] De la Jonquière. P. 290.

يلجئوا إلى البلاد المسيحية المجاورة، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة[١]. وقد وجد السلطان في هؤلاء الأشراف الداخلين في الإسلام أشد الدعاة تحمساً للدين الجديد[٢]. ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربي ظل متمسكاً بدينه القديم في خلال الفترة التي تحملوا فيها المتاعب والمشاق. أما في ستارا سربيا **Stara Serbia** أو الصرب القديمة وحدها[٣]، التي تؤلف الآن الجزء الشمالي الشرقي من ألبانيا الحديثة، فقد كان هناك عدد هائل نوعاً ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام؛ بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطى وئيدة جدًا حتى القرن السابع عشر، عندما حرض النمساويون أهل الصرب على إذكاء نار الثورة، حتى إذا ما أخفقت هذه المحاولة، هاجر أرسنيوس الثالث تسرنويفتش **Tsernoievich**، بطريق ذلك الوقت في سنة ١٦٩٠ مع ٤٠٠٠٠ أسرة صربية يجتازون الحدود إلى بلاد المجر. وفي سنة ١٧٣٩ حدثت هجرة أخرى مؤلفة من ١٥ ألف بزعامة أرسنيوس الرابع جوفانوفتش، وأوشك هذا الجزء من البلاد أن يتجرد من أهاليه الصربيين الأصليين[٤].

وضغط المستعمرون الألبانيون من الجنوب على البلاد التي خلت بهجرة هؤلاء الهاربين، وكان السواد الأعظم من هؤلاء الألبانيين عند وصولهم من الرومان الكاثوليك، ولكنهم بعد أن استقروا في بلاد الصرب القديمة اعتقدوا الإسلام تدريجاً، ولم يبق اليوم من الألبانيين من الرومان الكاثوليك إلا بقية صغيرة على الرغم من أن أفواجاً جديدة كانت تتجمع إليهم من الجبال من حين إلى حين. على أن هؤلاء الجدد كانوا ينسجون عادة على منوال أسلافهم، فيدخلون في الإسلام بعد قليل[٥].

أخذ الإسلام بعد هذه الهجرة، ينتشر بصورة أسرع بين البقية الباقية من أهالي

---

(١) **Kantiz, p. 37.**

(٢) **Id. Pp. 37-8**

(٣) أورد ماكنزي وإربي **Irby (p.243)** خريطة لهذه البلاد: وهي بريزرين **Prizren**، حاضرة الصرب القديمة، وإيبك **Ipek** مقر البطريق الصربين والمنطقة التي وقعت فيها معركة كوسوفو.

(٤) **Kantiz, p. 37.**

(٥) **Mackenzie and Irby, pp. 250-1.**

الصرب. وكان رجال الكنيسة من الصربيين في غاية الجهل والأمية، فلم يستطيعوا قراءة كتب خدمتهم الدينية إلا في صعوبة، ولم يعرف أحد منهم الكتابة إلا نادراً، ولم يعظوا الناس أو يعلموهم أصول الدين بطريقة الحوار. ومن ثم كان من النادر أن تجد في جميع القرى شخصاً عرف صلاة الرب وعرف عدد الوصايا، حتى القسس أنفسهم كانوا لا يقلون جهلاً بهذه المسائل الدينية(١). وبعد ثورة ١٦٨٩ عين الباب العالي بطريق إبيك، الرئيس الديني للصرب؛ ولكن في سنة ١٧٣٧، كان من أثر قيام ثورة أخرى أن تعطلت البطركية الصربية تعطلاً تاماً؛ وجُعلت الكنيسة الصربية تابعة للبطريق الإغريقي في القسطنطينية. وامتلأت الكنائس بالأساقفة الإغريق الذين ظاهروا البكوات والباشوات الأتراك على ابتزاز المسيحيين المساكين، وحرمت لغتهم القومية وجمعت كتب الصلوات السلافية القديمة وغيرها وأرسلت إلى القسطنطينية(٢).

فلا عجب أن يصيب الدين المسيحي انحلال وتدهور مع قيام رجال على الكنيسة من هذا القبيل؛ مثال ذلك أننا نجد في شعب جورا Gora (في مقاطعة برزرين) الذين كانوا قد أخذوا يدخلون في الإسلام على أثر الهجرة الكبرى سنة ١٦٩٠، أن الصربيين الذين مازالوا متعلقين بالمسيحية، طالما لجئوا إلى أسقف برزين الإغريقي ليبعث إليهم قسوساً ولو من حين لآخر، ولكن مساعيهم كلها ذهبت أدراج الرياح؛ فظل أبناؤهم من غير تعميد، ونظمت أعمال العرس والدفن من غير مباركة الكنيسة، وآلت المباني المقدسة إلى البلي(٣). كذلك في مقاطعة أوبولجه Opolje المجاورة. لا يبعد أن يكون السواد الأعظم من الأهالي المسلمين الآن الذين يبلغ عددهم ٩٥٠٠ نفسا، منحدرين من أهالي هذه البقعة الذين ينتمون إلى أصل سلافي(٤).

وفي مستهل القرن السابع عشر وجد بتزي في مدينة جانيفو Jagnevo ١٢٠ أسرة

---

(١) Farlati, vol, vii. Pp. 127-8.

(٢) Mackenzie and Irby, pp. 374-5. Kanitz, p. 39.

(٣) Id, pp. 39-40.

(٤) Kanitz, p. 38.

رومانية كاثوليكية و ٢٠٠ أسرة إغريقية و ١٨٠ أسرة إسلامية(١). وبعد ذلك بأقل من مائة عام، كان كل بيت في لندينه يُعدُّ مسلماً، لأن رب كل أسرة دان بالإسلام ولم يبق على المسيحية إلا النساء وبعض الأطفال(٢). وحول منتصف القرن الثامن عشر كانت قرية لجورس Ljurs بأسرها كاثوليكية. ففي سنة ١٨٦٣ كانت هناك ٩٠ أسرة مسلمة و ٢٣ أسرة مسيحية، أما في الوقت الحاضر فإن هذه القرية وما جاورها من القرى قد نبذ أهلها المسيحية عن آخرهم(٣). وكان لا يزال إلى وقت حديث بعض آثار باقية من دينهم المسيحي القديم، قائمة في بعض القرى كإحراق جذع الشجرة ليلة عيد الميلاد وغير ذلك. بيد أن أمثال هذه العادات أخذت تزول في الوقت الحاضر.

وبعد موقعة كوسوفو وسقوط دولة الصرب كانت هضاب الجبل الأسود الموحشة ملجأ لهؤلاء الصربيين الذين أبوا الخضوع للأتراك، ولكنهم عقدوا النية على التمسك باستقلالهم. ولا مجال هنا لسرد ما كان لهذا الشعب الجريء من تاريخ كفاح ينطوي على البطولة في وجه هذه الكثرة الهائلة، وكيف استطاعوا في خلال قرون قضوها في قتال مستمر في ظل حكم أمرائهم الأساقفة(٤)، أن يبقوا على ولاية مسيحية حرة، في حين كان جميع أخواتها من جنسها قد أجبرت على الخضوع للحكم الإسلامي. ولما كان الأساس الذي قام عليه كيانهم المستقل، باعتبارهم أمة، هو تمسكهم بالعقيدة المسيحية التي لا تتزعزع، لم يكن من المنتظر أن يتخذ الإسلام بينهم في سهولة ويسر. ولكن في القرن السابع عشر دخل في الإسلام كثير من أهالي الجبل الأسود في المقاطعات الواقعة على الحدود، والتحقوا بخدمة من جاورهم من الباشوات.

وفي سنة ١٧٠٣ جمع دانيال بيتروفتش D. Petrovich الأسقف الحاكم في ذلك الحين، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر في القضاء على

---

(١) Bizzi, fol. 48. b

(٢) Zmaievich, fol. 182.

(٣) Kantiz, p.38.

(٤) حكم الجبل الأسود أساقفة من سنة ١٥١٦ إلى ١٨٥٢

المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم. وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا في المسيحية من مسلمي الجبل الأسود قتلوا في ليلة عيد الميلاد في ثبات ورباطة وجأش[١].

والآن ننتقل إلى البوسنة: كانت أحوال الشعب الدينية والاجتماعية في هذه البلاد قبل الفتح التركي تستحق عناية خاصة. ينتمي السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد إلى طائفة مسيحية من الخوارج يطلق عليها طائفة «البوجوميل **Bogmiles**»، الذين كانوا قد تعرضوا من القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان، والذين طالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية عليهم[٢]. ففي سنة ١٣٢٥ كتب البابا جون الثاني والعشرون إلى ملك البوسنة يقول: «إلى ولدنا الحبيب الحسيب استيقن أمير البوسنة – لعلمنا بأنك ابن مخلص للكنيسة، نعهد إليك أن تستأصل شأفة الخوارج في ملكك، وأنت تبذل العون والمساعدة لقاضينا فابيان **Fabian**؛ ذلك أن جمهوراً عظيماً من الخوارج تجمعوا من نواح كثيرة متعددة، وتدفقوا جميعاً على إمارة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيبذرون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون في أمن ودعة.

ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم (أي الشيطان) وتساجوا بسموم باطلهم، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين، كلامهم دبيب السرطان، ويندسون في تواضعن ولكنهم يقتلون في باطن الأمر، وهم ذئاب في ثياب خراف، يسترون جنونهم الوحشي، يجعلونه وسيلة للتمويه على خراف المسيح الأبرياء، وفي القرن الخامس عشر أصبحت آلام البوجوميل لا تحتمل، حتى إنهم استغاثوا الأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، لأن ملك البوسنة والقسيسين كانوا قد بلغوا اضطهاد البوجوميل حدا ربما لم يبلغه أحد من قبل. فهرب عدد كبير منهم

---

[١] **E.L.Clark, pp, 362-3.**

[٢] دعا إليها البابا هنوريوس الثالث **Honorius III** في سنة ١٢٢١، وجريجوري التاسع في سنة ١٢٣٨، وإنوسنت الرابع **Innocent IV** في سنة ١٢٤٠، وبندكت الثاني عشر **Benedict XII** في سنة ١٣٣٧، وتأسيس ديوان الفتيش **Inquisition** في سنة ١٢٩٠.

يقرب من أربعين ألفاً من البوسنة، واتخذوا ملجأ في البلاد المجاورة. أما الذين لم يوفقوا في الهرب فقد أرسلوا إلى روما مكبلين في الأصفاد. ولكن هذه التدابير، على شدتها لم تضعف من قوة البوجوميل في البوسنة إلا يسيراً؛ ذلك أن الأخبار في سنة ١٤٦٢ تحدثنا أن الهراطقة كانت في هذه البلاد أقوى منهم في أي وقت مضى.

وفي السنة التالية، عندما غزا محمد الثاني البوسنة، وجد الملك الكاثوليكي أن رعاياه قد تخلفوا عنه؛ وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسي، مدينة بوبوفاتس Bobovatz الملكية إلى الأتراك، وأسرع سائر الحصون والمدن إلى الاقتداء بالحصن، وفي خلال أسبوع انتقلت سبعون مدينة إلى أيدي السلطان، وأضاف محمد الثاني البوسنة إلى عدد فتوحه الكثيرة[١].

ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن البوجوميل إلا قليلاً، ويظهر أنهم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم في جموع كبيرة على أثر الفتح التركي؛ أما البقية الباقية منهم فيظهر أنهم اعتقدوا الإسلام بعد ذلك تدريجاً، على حين هاجر الكاثوليك الرومان من أهالي البوسنة إلى ما جاورهم من أراضي المجر والنمسا. وقد زعم بعض الباحثين[٢] أن جموعاً كبيرة من البوجوميل، في العهد الأول من الفتح على الأقل، دخلوا في الإسلام بقصد الرجوع إلى دينهم إذا ما واتتهم فرصة مناسبة؛ ولما كانوا يقلون اضطهاداً مستمراً، فلا يبعد أنهم تعلموا كيف ينكرون دينهم إلى حين. ولكن لما لم تواتهم قط هذه الفرصة المناسبة، كان لا بد أن يصرفوا النظر عن هذه النية تدريجاً، ثم نسبتها ذريتهم آخر الأمر.

على أن مثل هذا الزعم لا يعدو أن يكون مجرد حدس وتخمين ولا يعتمد على دليل قوي. ولعل السبب في رضا البوجوميل بالسماح لأنفسهم أن ينتظموا في سلك عامة المسلمين المؤمنين راجع إلى مواضع كثيرة تتشابه فيها عقائدهم الخاصة ومبادئ الإسلام.

---

(١) Asboth, pp. 41-95. Evans. Pp. xxxxvi-xlii

(٢) Asboth, pp, 96 7.

فقد رفضوا عبادة مريم العذراء، ونظام التعميد وكل صورة من الكهنوت[1]. وأنكروا الصليب رمزاً دينياً، وعدوا من عبادة الأصنام الانحناء أمام الصور الدينية والتماثيل وآثار القديسين. وكانت بيوت صلواتهم ساذجة خالية من الزينة، وهذا على خلاف الكنائس الكاثوليكية الرومانية التي تحلت بالزخارف الزاهية. وشاركوا المسلمين في كراهية النواقيس التي أطلقوا عليها «أبواق الشيطان»، واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب، وإنما حل محله شيخ آخر: وهم يتفقون في هذه الناحية في جانب مما جاء به القرآن[2]. وإذ ذمهم الخمر، وتزمتهم البادي في أسلوب حياتهم، وتشددهم البالغ في سلوكهم الخارجي، كل هذه الروابط قد ساعدت على توثيق صلتهم بالإسلام[3]، إذا قيل عنهم: «إنك سترى هراطقة هادئين مسالمين كحملان طليقة بالعراء، ساكنين، شاحبي اللون من صيام يشوبه النفاق، لا يكثرون الكلام ولا يضحكون بصوت عال، يطلقون لحاهم ويظهرون بمظهره الوقار[4]». كانوا يصلون خمس مرات بالنهار وخمساً بالليل، مرددين صلاة الرب مع سجدات كثيرة[5]. ومن ثم وجدوا التغيير ضئيلاً بانتقالهم إلى إقامة الصلوات في المساجد.

وإذا كنا قد جمعنا هنا المواضع الكثيرة التي تتشابه فيها عقيدة البوجوميل مع تعاليم الإسلام، فإن هناك بطبيعة الحال بعض مبادئ تتميز بطابعها المسيحي الذي لا يستطيع أن يقرها مسلم من أهل السنة. ومع ذلك فإن من اليسير أن ندرك بوجه عام كيف استميل البوجوميل تدريجاً إلى ترك تلك المبادئ التي كان الإسلام ينبذها ولا يقرها. كذلك كان مذهبهم في المانوية المثنوية مما لا تتسامح فيه العقيدة الإسلامية؛ وإنما ظهر الإسلام

---

(1) وعابوا حفلات الكنيسة ورؤساءها، وأطلقوا على القسيسين من الأرثوذكس اسم الفريسيين العميان، وكانوا يهرونهم كما تهر الكلاب الخيل؛ وأكدوا أن العشاء الرباني لا يصان تبعاً لوصية الرب، وأنه ليس عبارة عن حصد الرب ولكنه كأي خبز آخر.

(Kosmas, quoted by Evans. Pp. xxx-xxxi)

(2) سورة ٤ آية ١٥٦.

(3) فإن هذا بما أظهره الأتراك نحو شارل الثاني عشر ملك السويد من إعجاب: «إن تعدده في الامتناع عن شرب الخمر ومواظبته على شهود الصلوات العامة مرتين في اليوم، قد جعلهم يقولون: إنه لمسلم حق».

(Euvers de Voltaire, tome 23, p, 200). (paris, 1785)

(4) **Kosmas, quoted by Evans, p. xxxi.**

(5) **Asboth, p. 36. Wetzer und Welte, vol, ii, p. 975.**

دائماً بمظهر المتسامح في قبول مثل هذه التأملات في العقيدة بشرط ألا تؤدي إلى الخروج عن الدين، وأن تكون الموافقة عامة والقبول شاملاً على الأصول الأساسية التي قامت عليها العقيدة من الوجهتين النظرية والعملية.

قدم الأتراك، كما كانت عادتهم دائماً، كل مزية لإغراء أهالي البوسنة على قبول الدين؛ فسمحوا لكل من يعتنق الإسلام أن يحتفظ بأراضيه وممتلكاته، وأعفيت إقطاعاتهم من جميع الضرائب[1]. ومن المحتمل أن يكون كثير من الورثة الشرعيين للبيوتات القديمة الذين كانت الطائفة الكاثوليكية قد انتزعت أملاكهم في جملة الأشراف بسبب أفكارهم الإلحادية، قد انتهزوا الآن فرصة لاسترداد مركزهم القديم بالإذعان للدين الغالب. واحتفظ البوسنيون المسلمون بقوميتهم، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء صربية ولا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية[2]؛ وفي الوقت نفسه كانوا يبرهنون دائماً على غيرة متدفقة على دينهم الجديد، وسرعان ما تبوأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكرية وتقديسهم للإسلام وما كان لهم من نفوذ قوي، مكانة سامية في القسطنطينية، وأصبح كثير منهم موضع ثقة في مناصب الحكومة المهمة. مثال ذلك أن تسعة من رجال السياسة الذين ينتمون إلى أصل بوسني شغلوا منصب كبير الوزراء في الفترة التي تقع بين سنتي ١٥٤٤، ١٦١١.

وكان آخر ما حصلت عليه الفتوح العثمانية من ممتلكات، جزيرة إقريطش التي اغتصبت في سنة ١٦٦٩ من جمهورية البندقية بالاستيلاء على مدينة كانديا بعد حصار طويل مضن دام نحو ثلاث سنين، وختم كفاح خمسة وعشرين عامًا بين تلك القوى المتنافسة في سبيل امتلاك هذه الجزيرة.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي انضوت فيها إقريطش تحت لواء الحكم الإسلامي، فقد استولى فريق من عرب الأندلس المخاطرين على هذه الجزيرة على غرة،

---

(١) Oliver, pp. 17-18.

(٢) Oliver, pp. 113.

وذلك في القرن التاسع الميلادي، وظلت تحت سلطانهم حوالي قرن (٨٢٥-٩٦١)[1]. وفي خلال هذه الفترة أصبح كل سكان الجزيرة تقريباً مسلمين، كما أصبحت بعض الكنائس أطلالاً، واستحال بعضها الآخر إلى مساجد. ولكن عندما عاد سلطان الدولة الرومانية إلى الاستقرار في هذه البلاد، ارتد الشعب مرة أخرى إلى دينهم القديم عن طريق التبشير الذي قام به راهب أرمني ماهر، وأصبح الدين المسيحي هو الدين الوحيد المعترف به في الجزيرة[2].

وفي مستهل القرن الثالث عشر اشترى البنادقة الجزيرة من بونيفاس دوق مونتسيرات **Monteserrat**، الذي أصبحت هذه الجزيرة من نصيبه بعد تقسيم الدولة الرومانية، وحكموها بيد من حديد ويظهر أنهم نظروا إليها على أنها شروة لهم أن يحولوها لصالح لحكومة التي استوطنت البلاد ولصالح مستعمريها. وكانت إدارتهم من الظلم والجور بحيث أثارت كثيراً من الثورات التي قمعت بشدة لا تعرف الرحمة؛ وفي إحدى هذه المناسبات أخليت مقاطعات بأسرها في ولايات سفاكية ولاسيتي **Sfakia & Lassiti** من السكان. وحُظرت زراعة الغلال في هذه الأرض، وإلا عرض المخالفون أنفسهم لعقوبة الموت، حتى إن هذه المقاطعات بقيت جرداء مقفرة مدة قرن تقريباً[3]. وقد أضافت تلك القسوة المفزعة التي قمع بها مجلس الشيوخ البندقي آخر هذه المحاولات في بداية القرن السادس عشر، رعباً بالغاً إلى حالة البؤس التي أنّ منها أهالي إقريطش التاعسون، ونستدل على سوء حظهم العاثر في هذه الفترة من تلك التقارير التي دونها أعضاء اللجنة الذين أرسلهم مجلس شيوخ البندقية في الشطر الأخير من هذا القرن نفسه، لكي يستقصوا حالة سكان الجزيرة. وقد قيل إن أشراف البندقية كانوا يسحقون الفلاحين بأقسى ألوان التعسف والظلم، كما أصبحت حالة سادتهم الإقطاعيين أسوأ من حالة الأرقاء، إلى حد أنهم لم يجرؤوا قط حتى على تقديم شكواهم من أي لون من ألوان الظلم.

---

(١) **Amari. Vol. p. p. 163; vol. ii. P. 260.**

(٢) **Cornaro, vol, I, pp, 205-8.**

(٣) **Perrot, p. 151.**

وكان على كل فلاح أن يشتغل في أعمال السخرة اثنى عشر يومًا كل سنة بدون أجر من أجل سيده الإقطاعي. وعندئذ كان في استطاعة سيده أن يرغمه على الاستمرار في العمل ما دام هذا السيد يحتاج إلى خدماته بأجرة اسمية قدرها بنس في اليوم (أي أربعة مليمات تقريباً). وكانوا يدفعون عن كرومهم ضريبة تعادل ثلث قيمة المحصول؛ ولكن الغش والعنف مجتمعين كثيرًا ما أفلحا في رفع هذه الضريبة إلى ما يعادل الثلثين. وقد تغتصب ثيرانهم وبغالهم لخدمة السيد الذي كان له ألف حيلة أخرى لابتزاز الفلاح المسكين[١].

ولكن اتضح أن قرارات أعضاء اللجنة لم يكن لها تأثير في إقناع مجلس الشيوخ بالبندقية، بأن يرفع من مستوى حالة أهالي إقريطش البائسين ويضع حدًا لقسوة الأشراف وظلمهم. فقد آثر المجلس أن يستمع إلى نصيحة فرا باولو ساربي **Fra Paolo Sarpi** الذي خاطب الجمهورية في سنة ١٦١٥ في شأن مستعمراتها اليونانية بقوله: «إذا استبد سادة هذه المستعمرات بالقرى الواقعة تحت نفوذهم فإن أقوم السبل أن نغض النظر عنها لأنه قد لا توجد رحمة بينهم وبين رعاياهم[٢].

فلا عجب إذا علمنا من المصادر ذاتها أن أهالي إقريطش كانوا يتطلعون إلى تغيير الحكام، وأنهم «لم يترددوا كثيرًا في الخضوع للترك في ذلك بسائر أمتهم». حقًا لقد هرب كثير إلى تركيا في ذلك الوقت تخلصًا مكن عبء الضريبة الذي أثقل كواهلهم، مقتفين آثار غيرهم ممن لا يدخلون تحت حصر، وممن كانوا من حين لآخر قد اتخذوا هناك ملجأ لهم[٣]. كذلك هاجرت جموع غفيرة إلى مصر حيث دخل كثير منهم في الإسلام[٤]. وقد أزعج أهالي إقريطش بوجه خاص ما أنزله رجال الكنيسة اللاتينية بهم من تعسف وإرهاق، هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على الأحباس التي هي من حق رجال الدين من الإغريق. ولم يألوا جهدًا في إهانة المسيحيين من أشياع المذهب اليوناني، الذين ألقوا تسعة أعشار

---

(١) **Pashley. Vol. i. p. 30; vol. ii. Pp. 248, 291-2.**

(٢) **Pashley, vol, ii, p, 298.**

(٣) **Id, vol, ii, p, 285.**

(٤) **Id, vol, ii, p, 319.**

سكان الجزيرة[١]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأتراك قد استرضوهم بإعادة السلطة الدينية اليونانية. وقد ذكر أحد كتاب البندقية أن هذا الأمر قد تم على الصورة التالية: «ذهب أحد كهنة الأبرشية اليونانية أو أحد القسيسين في كانيه **Canea** إلى قُسيم القائد التركي وأخبره أنه إذا أراد أن يظفر برضا الشعب الإفريطي وأن يجعل البندقية مبغضة إليه، فلا بد له من أن يعلم أن الدين هو أوثق الروابط التي تحفظ المجتمع الراقي من وهدة الانشقاق، وأنه ينبغي أن يعمل في طريق تختلف عن الخطة التي رسمها البنادقة لأنفسهم. فقد بذل هؤلاء قصاراهم في استئصال شأفة العقيدة الإغريقية وتأسيس عقيدة روما مكانها، وتواطئوا معها على أن يصدروا أمرهم بعدهم بقاء أي أسقف إغريقي في الجزيرة.

ومن ثم حسبوا أنهم بعد إقصاء هؤلاء الرعاة الموقرين أنه أصبح من الميسور أن يتمكنوا من قيادة القطعان المتفرقة، وكان هذا التحريم قد أثار بلبلة في عقول أهالي إقريطش إلى حد أنهم كانوا متأهبين في فرح وطاعة للترحيب بأية سلطة تبدي رغبتها في إعادة تأسيس هذا النظام في حكومتهم الدينية، وهو نظام أساسي في مباشرة عبادتهم المقدسة ذاتها. وأضاف إلى ذلك أنه قد تكون هناك وسيلة أخرى لاسترضاء الشعب لو أنهم منحوا مزايا دينهم القديمة، بل منحوا إلى جانب ذلك مزايا جديدة كذلك. وقد رأى قسيم أن هذه المطالب عادلة، فبادر إلى الكتابة إلى القسطنطينية بشأنهم، وهناك أقروا مطالبهم، وأمر البطريق اليوناني بأن يعين رئيس أساقفة ليكون مطرانا لولاية كانديا. ورشح كذلك سبعة أساقفة آخرين ليعملوا برياسة المطران[٢]».

ويظهر أن جموعًا كبيرة من أهالي إقريطش دخلت في الإسلام بعد الفتح التركي مباشرة، ولا يبعد أن تكون تلك الوطنية ذاتها التي جعلتهم يتمسكون بدينهم القديم تحت سيادة البنادقة الأجنبية الذين أبقوا عليهم في حر شديد، ونظروا إلى أية محاولة ترمى إلى

---

(١) **Perrot, p. 151.**

(٢) **Charels Edwardes: Letters from Crete, pp, 90-2. (London, 1887)**

إدماجهم في غيرهم على أنها إهانة لا تغتفر(١)، وحاولوا دائماً أن يوحوا إلى رعاياهم بأنهم منحطون، لا يبعد أن يكون ذلك كله قد حملهم على قبول ديانة سادتهم الجدد التي سرعان ما رفعتهم من منزلة الرعايا إلى رتبة الأنداد، ومنحتهم نصيبًا في الحياة السياسية وفي حكومة بلادهم.

ومهما تكن العوامل التي أدت إلى تحول أهالي إقريطش إلى الإسلام وانتشاره بينهم انتشارًا واسع النطاق، يبدو أنه مما لا يكاد يصدقه العقل أن القوة هي التي غيرت دين شعب كان قبل ذلك بقرون قد تشبث بدينه القديم في قوة وثبات، برغم ما عاناه من اضطهاد خصم وعقيدة أجنبية. ومهما تكن الوسائل التي انضووا بها إلى صفوف الإسلام، فقد قيل إن معظم المسلمين بعد الفتح بثلاثين سنة كانوا قد ارتدوا عن المسيحية أو كانوا أبناء مرتدين(٢). وفي مدة تزيد قليلاً على قرن دخل نصف أهالي إقريطش في الإسلام. وكان هناك مسلمون من أهالي إقريطش (ولا يزالون) من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، لا في المدن وحدها، بل كذلك في القرى والمناطق الداخلية وفي صميم الجبال، وهم متفقون جميعًا في الشكل والعادات واللغة برغم أنهم إغريق لحمًا ودمًا.

ولم يكن هناك قط، حتى في الوقت الحاضر، أية لغة يتكلمها أهالي جزيرة إقريطش سوى اللغة اليونانية؛ حتى الأتراك القلائل الذين نجدهم هنالك لم يكن بد من أن يتكلموا لغة البلاد، كما كانت جميع فرمانات الباب العالي وأوامر الباشوات تقرأ وتذاع باللغة اليونانية(٣). ولم يكن ما حدث بين النصارى والمسلمين في إقريطش من الشعور المرير الذي جعل تاريخ هذه الجزيرة في غضون القرن التاسع عشر تاريخًا ينطوي على الحزن والأسى، خطيرًا بحال من الأحوال قبل نشوب الثورة اليونانية، أيام أن كان مسلمو إقريطش يكثرون من اتخاذ البنات المسيحيات زوجات لهم، وكن من بنات أصدقائهم

(١) Phashley, vol, ii. Pp. 151-2.

(٢) Id. Vol. i. p. 9.

(٣) Perrot, p. 159.

المسيحيين[١].

وقد زاد في توثيق الارتباط الاجتماعي بين هاتين الجماعتين الزيّ المشترك بينهما؛ فقد كان أهالي إقريطش من المسلمين والنصارى على سواء متشابهين في الزي، حتى لقد كان من العسير على المقيمين بينهم فترة طويلة، أو على اليونان من أهالي الجزر المجاورة[٢] أن يميزوا بين الفريقين في كثير من الأحيان.

وقد سدت الأحداث السياسية الحديثة نقصًا كبيرًا في سكان إقريطش المسلمين، وفي سنة ١٨٨١ كان عدد المسلمين في الجزيرة ٧٣.٢٣٤، وفي سنة ١٩٠٩ نقص العدد على أثر الهجمات المستمرة إلى ٣٣.٤٩٦[٣].

---

(١) Pashley, vol. i.pp. 10, 195.

(٢) T.A.B Spratt: Travels and Researches in Crete, vol, i, p. 47. (London, 1865).

(٣) R. du M.M Vii. P. 99.